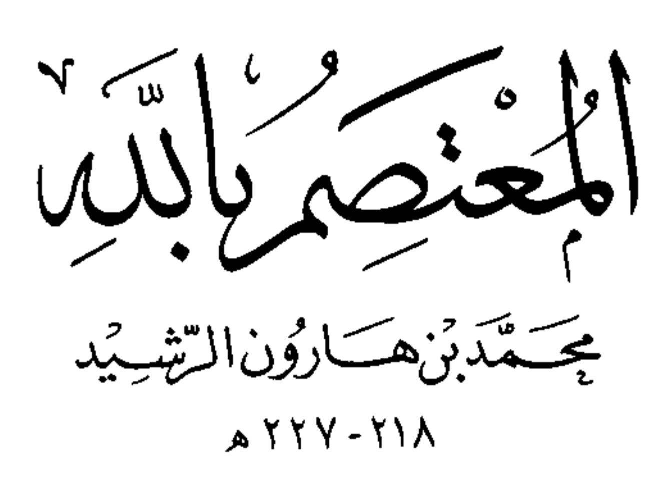
سلسلة الخلفاء



المعتصم بالله

محمد بن هارون الرشيد

٢١٨ - ٢٢٧ هـ

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)

دمشق : ص.ب : ١٢٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧

عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، محمد بن عبد الله وعلى إخوانه رسل الله والنبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن السهام المسمومة من أراجيف وافتراءات إنما توجّه إلى عظماء الرجال؛ إذ يريد أصحاب هذه السهام وهم من الأعداء، أن يُبدّلوا الحقائق وأن يُغيّروا المفهومات في سبيل تشويه صورة أولئك العظماء، وإعطائهم شخصية الرجل الذي يسعى وراء الباطل يتبع هواه وينطلق خلف مصالحه، همّه الشهرة، وبغيته الشهوة، ورغبته الكنز، وحرصه على السلطان، وأمله في إبقاء ما وصل إليه لولده وأحفاده من بعده.

يرى أصحاب هذه السهام إن نجحوا في ذلك استطاعوا أن يقوّضوا تاريخ الأمة المسلمة بعد أن يُزيّفوا أحداثه، ويزوّروا مجراه، ويشوّهوا أعمال رجاله، وإن تمّ لهم ذلك ضعفت معنويات المجتمع، وانهارت

مقوّماته، وإن حدث ذلك وقعت الخلافات، وكانت الصراعات، وجرت الدماء، وبقيت الجراح تنزف، ويكون الهوان، ويحلم أصحاب السهام بعدها أن تترك الأمة المسلمة مكانتها، ويعود إلى الساحة من سبق لها أن هزمتهم، وتحيا من جديدٍ العقائد الباطلة التي أزالتها انتصارات المسلمين وانتشار دعوتهم، وسيادة عقيدتهم. وإن لم يحدث ذلك فإن الأمة المسلمة تضعُف مع الزمن بعد ضرب معنوياتها والطعن في أمجادها، وإذا ضعفت طغت عليها الأحداث وغطّت عليها الأيام، ويكون أصحاب السهام قد حقّقوا مبتغاهم، ووصلوا إلى أحلامهم، وربما نمت بذور عفنة في أرضٍ مقفرةٍ.

صنع الأعداء السهام من عدة موادٍ ورموا بها على أهدافهم؛ ومن هذه المواد:

١ ـ الحديث: وضع الأعداء أحاديث ونسبوها لرسول الله ﷺ، كذباً وافتراءً يطعن بعشيرةٍ أو أسرةٍ أو قبيلةٍ، وإن كان هذا معروف الوضع لأنه مرفوض الفكرة فليس هناك من مجموعةٍ بشريةٍ كُتب عليها الشقاء وأخرى كُتب لها النعيم وإنما لكل امرئٍ ما قدّم، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم. فليس في الإسلام بادئ الأمر أمة أفضل من أمةٍ ولا شعب خير من شعبٍ، ولكن

الأمور بخواتيمها. ومما جاء في هذا الموضوع: (حديث رواه المعتصم) قال الصولي: حدثنا العلائي، حدثنا عبد الملك بن الضحاك، حدثني هشام بن محمد، حدثني المعتصم، قال: حدثني أبي الرشيد عن المهدي عن المنصور عن أبيه عن جده عن ابن عباس، رضي الله عنهما، [عن أبيه] «أن النبي ﷺ نظر إلى قوم من بني فلان يتبخترون في مشيهم، فعُرف الغضبُ في وجهه، ثم قرأ ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ فقيل له: أي شجرةٍ هي يا رسول الله حتى نجتنبها؟ فقال: ليست بشجرة نبات إنما هم بنو أمية، إذا ملكوا جاروا، وإذا ائتمنوا خانوا، وضرب بيده على ظهر عمه العباس، فقال: يُخرج الله من ظهرك يا عمّ رجلاً يكون هلاكهم على يده». قلت: الحديث موضوع، وآفته العلائي[1].

أليس عثمان بن عفان، وخالد بن سعيد بن العاص، وعمرو بن سعيد بن العاص، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، رضي الله عنهم، من السابقين إلى الإسلام، ومن قادة هذه الأمة، وهم من بني أمية! وهل إساءة أفرادٍ من قومٍ يُحكم على القوم كلهم. (معاذ الله

(١) تاريخ الخلفاء: جلال الدين السيوطي.

أن ينسب هذا إلى رسول الله ﷺ، فالوضع ظاهر، والكذب واضح، والافتراء بيّن، والغرض معروف، والهدف مكشوف، والأمر جليّ، ولعنة الله على الكاذبين). ورسول الله ﷺ، يقول: (من كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار)[1].

٢ ـ القتل: إذا كان هناك خلاف في الاجتهاد بين الخليفة ورجلٍ آخر ذي مكانةٍ، وحدث أن انتهى أجل الرجل، اتهم الأعداء الخليفة بقتله، وأنه قد دسّ له السمّ، حتى أُشيعت العبارة التي تقول: إن لله جنوداً من عسلٍ. وكأن الخليفة على هذه الدرجة من البعد عن الإيمان إذ لا يبالي بالقتل، ولا يهتم بقول الله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا. . .﴾[2]. وما هدف الأعداء سوى ذلك أن يظهر الخليفة مخالفاً لكتاب الله، فتقوم الحركات ضده، ويقع الخلاف، ويحدث التفكك في الأمة، ويكون الضعف، وترتفع شعلة النار. ويبقى ذلك إلى المستقبل لا هيبة للخلافة، ولا قوة للأمة، ولا قيمة لتاريخها ولا مجد لأبنائها.

---

(١) رواه البخاري وبقية أصحاب السنن.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣٢.

٣ ـ الفجور: كثيراً ما حيكت قصص، ونُسجت روايات من الخيال حول جواري الخلفاء ومغنياتهم بل وحول الخصيان، وحول معاقرة الخمر والإكثار من ذلك حتى تخرج عن حدود المعقول، ويقع من باب الافتراءات للهدف الذي ذكرناه وهو إحداث الفتنة بين أفراد المجتمع الملتزم بتعاليم شرعه وبين من يتولّى أمره، ولإذهاب هيبة الخلافة والأمة الملتزمة بمبادئها في قادم الأيام.

كانت هذه الافتراءات تدسّ خلال الأدب: شعره، ونثره، وقصصه، وأمثاله. فقد تنظم قصائد تتضمّن تلك الافتراءات، وتُنسب لشعراء الخلفاء البارزين، أو تُدسّ أبيات ضمن قصائد أولئك الشعراء، وبعد جمع الشعر وتداوله تفوح الروائح الكريهة التي خطّط لها الأعداء وأخرجوها، وكذا القصص، والأمثال. فإذا كانت القصائد حسنة النظم، جزلة التركيب، وكانت القصص جيدة السبك، قوية الصياغة، رائعة السجع، وهذا هو الغالب؛ إذْ نُظمت بجهدٍ فكريٍ حيث لها هدف، وصيغت بتعبٍ أدبيٍّ إذْ لها مرمى؛ لذا فقد اشتهرت، وحفظها الكثير، وردّدها المربّون وطلاب الأدب فشاعت على الألسنة، وغدت الفرية أقرب إلى الحقيقة، والشائعة أميل

إلى الصدق. وألصقت التهم بعظماء الرجال.

وجاء الكتّاب ومنهم المغرضون وعدّوا تلك القصائد والقصص مصدراً لهم، فصاغوا ما شاء لهم هواهم من أحداث فضمّنوها كتب التاريخ، وحشوها في المؤلفات، فصارت الأساطير أحداثاً واقعية. وهكذا حوت كتبنا الثقة والمكذوب، والصحيح والسقيم، والسليم والعليل، والسمين الدسم ذا القيمة، والهزيل الذي لا فائدة منه ولا قيمة له.

والباحث المنصف الذي يريد خدمة أمته يبحث بدقةٍ وأمانةٍ؛ فينقي الموضوعات مما لحقها من شوائب وما دُسّ فيها من افتراءاتٍ فيُقدّم الصحيح ويُلقي المكذوب بوجه الذين وضعوه، وهذه المهمة الواجبة علينا.

إن الرجال السابقين الذين قدّموا الأعمال العظيمة قد وُجّهت إليهم سهام مسمومة لكنها نَبَتْ أمام ثبات تلك الأعمال ومتانتها، ورسوخها ومكانتها أو ارتدت تلك السهام إلى الذين أتمّوا بَرْيَها.

وجاء خلفاء دون من سبقهم، وكانت أعمالهم دون أعمال من تقدّمهم، وبقي توجيه سهام الأعداء دون انقطاعٍ، وظهر أثرها أكثر مما سبق؛ إذ أصبحت

الأهداف على مرمى السهام، وغدا التأثير أكثر وضوحاً لقلّة المقاومة بسبب ضعف المكانة، ولضعف المتانة لقلّة الجهاد.

بدأ تأثير السهام كبيراً رغم أن السهام هي نفسها مادتها اللهو والتبذير، ولُحمتها الكذب والافتراء، ووسيلتها الأدب والشائعات، غير أن الخليفة محمد المعتصم بن هارون الرشيد قد خفّ عليه أثر تلك السهام المسمومة؛ إذ ردّ فتح عمورية عدداً من السهام، وكان شُغْلُ الناس بأحداث متعصبي المتلوّنين من الخرّميّة قد أوقف الرماة قليلاً بانتظار نتائج القتال الدائر في منطقة الجبال وأذربيجان، وإن خفَّف ذلك عنه قليلاً لكن ناله ما حرَّره المدوّنون للتاريخ والأدب بعد زمنٍ، حيث هذه السهام موجَّهة لعامّة أمة الإسلام للنيل من تاريخها وحضارتها وشريعتها، وإضعاف هيبتها في نظر أبنائها في المستقبل عسى أن يُؤثّر عليهم ذلك، فيتخلّون عما حملوه ويتنازلون عما يملكون.... ولا يزال المتلوّنون يحلمون بعودة شعلة النار المقدسة عندهم.

نرجو من الله العليّ القدير أن نستطيع تقديم أفضل الزاد الذي يمكننا الحصول عليه مادةً والوصول إليه تحليلاً. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



الفصل الأول
المُعتصِم قبلَ الخِلافة

عرفنا من قبلُ أنه كان لهارون الرشيد أربعة عشر ولداً ذكراً، تسعة منهم يحملون اسم (محمد) ويُعرفون باللقب أو الكنية، وهؤلاء التسعة هم:

١ ـ محمد الأمين.
٢ ـ محمد المعتصم (أبو إسحاق).
٣ ـ محمد (أبو عيسى).
٤ ـ محمد (أبو يعقوب).
٥ ـ محمد (أبو العباس).
٦ ـ محمد (أبو سليمان).
٧ ـ محمد (أبو علي).
٨ ـ محمد (أبو أحمد).
٩ ـ محمد (أبو أيوب).

وجميعهم باستثناء محمد الأمين من أمهات الأولاد، وليس من شقيقٍ بينهم لثانٍ، إذ كل واحدٍ منهم من أم ولدٍ

خاصةٍ، أما محمد الأمين فأمه زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور أي ابنة عمّ أبيه هارون الرشيد.

أما محمد المعتصم (أبو إسحاق) فأمه أم ولدٍ تركيةٍ من مولدات الكوفة وأمها من بلاد الصغد في أوزبكستان من منطقة طاشقند اليوم، وتُدعى ماردة، وكانت أكثر حظوةً عند الرشيد من بقية جواريه وأمهات أولاده. وُلد محمد المعتصم في بغداد في العاشر من شهر شعبان سنة تسعٍ وسبعين ومائة، فهو أصغر من أخيه المأمون أكبر أبناء الرشيد بتسع سنواتٍ وأربعة أشهرٍ وخمسةٍ وعشرين يوماً، وكان المأمون قد وُلد ليلة بيعة أبيه الرشيد بالخلافة[1].

ومحمد المعتصم أصغر من أخيه الأمين[2] ثاني أبناء الرشيد بثمان سنواتٍ وتسعة أشهر وسبعةٍ وعشرين يوماً.

فكانت ولادة المعتصم بعد استخلاف أبيه هارون الرشيد بتسع سنواتٍ وأربعة أشهرٍ وخمسةٍ وعشرين

(١) ولد المأمون ليلة الجمعة منتصف ربيع الأول سنة سبعين ومائة وفي تلك الليلة بويع الرشيد بالخلافة.

(٢) ولد الأمين في ليلة ثلاث عشرة خلت من شهر شوال سنة سبعين ومائة.

يوماً، وتوفي هارون الرشيد ليلة السبت لثلاثٍ خلون من جمادى الآخرة من سنة ثلاثٍ وتسعين ومائة، وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنةً وشهرين وثمانية عشر يوماً.

لم يكن يتجاوز عمر المعتصم عندما توفي والده أربع عشرة سنةً (ثلاث عشرة سنةً وتسعة أشهرٍ وثلاثة وعشرين يوماً) أي كان فتىً صغيراً فلم يكن له دور في الخلافة، ولم يكتسب تجربةً في الإدارة. وكان هارون الرشيد قد قسّم ديار الخلافة بين أبنائه الآخرين؛ إذ ولّى ابنه عبد الله المأمون المنطقة الممتدة من «همذان» إلى مشرق ديار الإسلام، وولّى ابنه الثاني محمد الأمين على العراق والشام إلى مغرب ديار الخلافة، وولّى ابنه القاسم المؤتمن الجزيرة الفراتية والثغور والعواصم، ولما كان القاسم المؤتمن صغيراً كان المأمون ينظر باسم أخيه المؤتمن بشؤون الأمصار التي تولّى أمرها المؤتمن.

وأعطى هارون الرشيد ولاية العهد لابنه الثاني محمد الأمين، ومن بعده لولده الأول عبد الله المأمون ومن بعدهما لابنه الثالث المؤتمن. وجعل هارون الرشيد أمر خلع القاسم وإقراره إلى عبد الله المأمون إذا آلت إليه الخلافة.

ومات هارون الرشيد وولي ابنه محمد الأمين

الخلافة من بعده فعزل المؤتمن عن الجزيرة، وأقرّه على قنسرين والعواصم، ولما اشتدّت الفتنة بين الأمين والمأمون سار المؤتمن إلى المأمون بخراسان، فوجّهه إلى «جرجان» سنة ١٩٧هـ، فأقام فيها، وأعلن المأمون خلعه من ولاية العهد سنة ١٩٨هـ بعد أن آل الأمر إلى المأمون بمقتل الأمين، وتوفي المؤتمن في أيام المأمون.

في أيام الأمين:

توفي هارون الرشيد وبويع الأمين ولا يزال المعتصم صغيراً لم يتجاوز عمره أربع عشرة سنةً، وبقي صغيراً مدة خلافة أخيه الأمين القصيرة التي لم تكتمل خمس سنواتٍ، وفي الوقت نفسه لم يجد دفعاً في محاولةٍ لرفعه حيث كان المتلوّنون لا يُبالون بشيءٍ سوى المخطط الذي سبق لهم أن رسموه، كما لا يُبالون بأشخاصٍ خارج نطاق عملهم. كان همّ المتلونين وهدفهم الأول تفرقة المجتمع الإسلامي والعمل الدؤوب لضرب فريقٍ بآخر فيضعف بذلك المسلمون ويمكن عندها أن يلعب الأعداء دورهم؛ إذ يقوى أمرهم فيضربون الذين ضعفوا ضربةً عنيفةً يمكنها أن تقتلعهم من جذورهم، فتنتهي منهم، ويكون أصحاب الرأي الذين يقفون خلف المخطط، ويُشرفون على التنفيذ من

بعيدٍ، يكونون قد جهّزوا من يستلم الأمر ممن قُضي على سلطانهم بزوال الجاهلية، وقُضي على عقيدتهم بدخول الإسلام.

لم يكن عمل المتلونين رجحان كفة فريقٍ من المسلمين على كفة الفريق الآخر، لأن أيّ واحدٍ منهما نجح وساد هو خصم لهم ما دام يلتزم بعقيدته ويعمل لها ويجاهد في سبيل الله من أجل انتشارها، لذا يريد المتلوّنون أن يقوى الفريقان ويتعادلان من حيث القوة حتى يُفني بعضهما بعضاً.

وقع الخلاف بين ولدي هارون الرشيد وهما الأمين والمأمون، وحدثت الفتنة بينهما، ووقف المتلوّنون مع الطرفين؛ فكان فريق مع المأمون يُشجّعه ضد أخيه الأمين ويقول له: إن أمك منا فنحن أخوالك، ولن نُفرّط بابن أختنا فنحن حماته نُدافع عنه بكل ما أوتينا من قوةٍ، ونبقى بجانبه حتى آخر قطرة دمٍ فينا، وما دام فينا عرق ينبض فلن تصل إليه يد آثمة.

وفي الوقت نفسه كان فريق آخر من المتلوّنين مع الأمين، وذلك حتى تبقى الأمور مُغطاةً فلا تنكشف ويقال إن جماعة... هي بجانب فلان فيعرف الهدف والتوجّه العام لها، أما هكذا فإن المتلونين يحملون

صفة بقية أفراد المجتمع هنا وهناك. ومن ناحيةٍ ثانيةٍ يهدف المتلوّنون إلى عدم انتصار فريقٍ على آخر وانتهاء الموضوع بغلبة طرفٍ والقبض على الأمور بيدٍ قويةٍ من جديدٍ، بل الأصل عندهم أن يبقى الصراع قائماً حتى تضعف الأمة وتنهار، لذا يجب أن يُشعل الفتيل باستمرارٍ من كل جهةٍ، وكي لا تظهر عاطفة القرابة وصلة الرحم فيلين أحدهما للآخر ويتنازل له وتنتهي القضية، والواقع أن هذه العاطفة كانت موجودةً عند رأسي الفريقين، ولذا كان من مخطط المتلوّنين إثارة الضغائن بالافتراءات والتحرّشات.

وعمل المتلوّنون أيضاً على إبعاد أبناء هارون الرشيد الآخرين؛ ومنهم محمد المعتصم عن الساحة لأنهم لو انحازوا إلى جانبٍ لمال الناس بعواطفهم نحو هذا الجانب ما دام الإخوة الأكثر لهم رأي واحد، فالانحياز إلى هذا الجانب معناه المحافظة على تماسك الأسرة الحاكمة، والعمل على دعم الخلافة، وبالتالي الإبقاء على قوة الدولة. وبقي محمد المعتصم مدة خلافة محمد الأمين بعيداً عن الساحة السياسية، غير أنه لاحظ أمراً أساسياً وهو أن غالبية المتلوّنين من جهةٍ معينةٍ وأنهم يظهرون غير ما يُخفون، ويعملون على إثارة الفتن،

ويُشجّعون على الخلاف، وهم موزَّعون على الأطراف المتنازعة يشحنون هذا على ذاك، وذاك على هذا كي تبقى النار متأججةً، وحتى تهتزَّ قواعد المجتمع الإسلامي، والأخطر من أي شيءٍ آخر، ظهور حركات الإلحاد منهم وإبداء بعض المظاهر العقدية السابقة مثل عبادة النار، والقول بوجود إلهين إحداهما للنور والآخر للظلمة و. . .

رأى محمد المعتصم هذا كله بثاقب نظره، فاقتنع أن هؤلاء جماعة لا يمكن الاعتماد عليهم، ولكنهم استطاعوا التغلغل في مختلف أوساط الدولة وخاصةً مراكز القوة والحياة العسكرية، وهذه مراكز يصعب التخلّص منهم بسهولةٍ لخطورة مناصبهم، وكثرة عددهم، وتماسكهم عصبيةً، ومخططاً، وهدفاً، وعقيدةً، ولا بُدّ أن يُقابل هذا بمثله.

في عهد المأمون:

انتهى الصراع بين محمد الأمين وأخيه عبد الله المأمون بمقتل الأول وتسلّم الثاني منهما للخلافة، ورأى الخليفة الجديد أن يقرّب إخوته إليه بل وسائر أسرته لتقوية مركزه، والإفادة من إمكاناتهم، ومن بينهم أخوه محمد المعتصم.

عيّن المأمون أخاه المعتصم والياً على مصر، فأناب المعتصم مكانه ابن عميرة بن الوليد الباذغيسي على مصر، وبقي هو بجانب أخيه المأمون في بغداد، فخرج عبد السلام وابن جليس سنة ٢١٤هـ في مصر بالقيسية واليمانية، وقتلا نائب المعتصم، وعاثا فساداً في البلاد، فسار المعتصم بقوةٍ إلى مصر، وقاتلهما، وقتلهما، ودخل مصر، واستقامت أمورها، فاستعمل عليها عمالاً، وأناب مكانه، ورجع إلى بغداد، فكان بجانب أخيه.

كان المعتصم يريد أن يطمئن إليه المتلوّنون بوقوفه بجانب أخيه المأمون سامعاً مطيعاً مُنفّذاً كل ما يُوجّه إليه، ويخلص إليه، ويمحضه النصح فارتاح إليه المأمون وقدّمه، وسكت المتلوّنون عن المعتصم، فلم يخشوه إذ لم يتوقّعوا منه معاداةً، ولم يحذروا منه عناداً حيث لم يروه إلا هادئاً، ولم يظهر لهم إلا مسايراً، وربما لو لم يفعل ذلك لدبّروا له مكيدةً، أو هيّأوا له نكايةً، أو لحرّضوا عليه أخاه المأمون وافتروا عليه الافتراءات حتى ينتهي منه.

فالمعتصم كان إلى جانب أخيه المأمون، وإذا سار الخليفة إلى مكانٍ كان معه، وانطلق المأمون للجهاد في بلاد الروم يوم الأربعاء لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة سنة ٢١٨هـ، ودخل أرض الروم من

ناحية «طرسوس»، وكان معه أخوه المعتصم، وبينما كان على ساحل البحر في منطقةٍ على مسيرة يومٍ من «طرسوس» إذ جاءهما شيء من الرطب فأكلا منه فأصابتهما الحمى، وكان ذلك بداية مرض المأمون الذي كان أجله بسبب ذلك المرض بأمر الله وتقديره.

العهد بالخلافة:

أحسّ المأمون بدنو أجله في مطلع شهر رجب سنة ٢١٨هـ، فعهد لأخيه أبي إسحاق محمد المعتصم بالخلافة من بعده، وبعث بالكتب بذلك إلى عماله بالأمصار، وقد جاء فيها: من عبد الله عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين وأخيه الخليفة من بعده أبي إسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد إلى العباس بن المأمون، وإلى إسحاق، وعبد الله بن طاهر، أنه إن حدث به حدث الموت في مرضه هذا فالخليفة من بعده أبو إسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد. فكتب بذلك محمد بن داود، وختم الكتب وأنفذها.

فكتب محمد المعتصم إلى عماله: من أبي إسحاق أخي أمير المؤمنين والخليفة من بعد أمير المؤمنين.

فورد كتاب من أبي إسحاق محمد بن هارون

الرشيد إلى إسحاق بن يحيى بن معاذ[1] عامله على جند دمشق يوم الأحد لثلاث عشرة ليلةً خلت من شهر رجب سنة ٢١٨هـ، عنوانه: من عبد الله عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين والخليفة من بعد أمير المؤمنين أبي إسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد: أما بعد، فإن أمير المؤمنين أمر بالكتاب إليك في التقدّم إلى عمالك في حسن السيرة وتخفيف المؤونة وكفّ الأذى عن أهل عملك، فتقدّم إلى عمالك في ذلك أشدّ التقدمة، واكتب إلى عمال الخراج بمثل ذلك.

وكتب إلى جميع عماله في أجناد الشام. جند حمص، والأردن، وفلسطين بمثل ذلك. فلما كان يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلةً بقيت من شهر رجب سنة

---

(١) إسحاق بن يحيى بن معاذ: والٍ من كبار القادة في العصر العباسي، ولي دمشق في أيام المأمون والمعتصم والواثق، ثم ولّاه المتوكل على إمرة مصر في أواخر سنة ٢٣٥هـ، فقدم إليها، وأحبه أهلها. وكان جواداً عاقلاً التدبير والسياسة، شجاعاً محباً للأدب، مدحه كثير من الشعراء، وعزله المنتصر بن المتوكل في عهد أبيه عن مصر سنة ٢٣٦هـ قبل أن يكمل العام، فبقي فيها فمات في العام التالي سنة ٢٣٧هـ. وكان أبوه يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، أبو زكريا زاهداً واعظاً يفوق نظراءه، وهو من أهل الرأي، أقام في بلخ، ومات في نيسابور سنة ٢٥٨هـ.

٢١٨هـ صلى إسحاق بن يحيى بن معاذ في مسجد دمشق، فقال في خطبته بعد دعائه لأمير المؤمنين: اللهم وأصلح الأمير أخا أمير المؤمنين والخليفة من بعد أمير المؤمنين أبا إسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد.

ولما اشتدّ المرض بالخليفة المأمون بعث إلى ابنه العباس ليأتيه، فأتاه والمأمون شديد المرض، متغيّر العقل، وقد صدرت الكتب بما نفذت له في أمر محمد المعتصم بن الرشيد. فأقام العباس عند أبيه أياماً، وقد أوصى قبل ذلك إلى أخيه أبي إسحاق المعتصم.

وقيل: لم يوص المأمون إلا وابنه العباس حاضر، والقضاة والفقهاء والقواد والكتّاب، وكانت وصيته: هذا ما أشهد عليه عبد الله بن هارون أمير المؤمنين بحضرة من حضره، أشهدهم جميعاً على نفسه أنه يشهد ومن حضره أن الله عزّ وجلّ وحده لا شريك له في ملكه، ولا مدبّر لأمره غيره، وأنه خالق وما سواه مخلوق، ولا يخلو القرآن أن يكون شيئاً له مثل، ولا شيء مثله تبارك وتعالى، وأن الموت حق، والبعث حق، وثواب المحسن الجنة، وعقاب المسيء النار، وأن محمداً ﷺ قد بلّغ عن ربّه شرائع دينه، وأدّى نصيحته إلى أمته، حتى قبضه الله إليه، صلى الله عليه أفضل صلاةٍ صلّاها على أحدٍ من

ملائكته المقرّبين وأنبيائه المرسلين، وإني مقرّ مذنب، أرجو وأخاف، إلا أنني إذا ذكرت عفو الله رجوت. فإذا أنا متّ فوجّهوني وغمّضوني، وأسبغوا وضوئي وطهوري، وأجيدوا كفني، ثم أكثروا حمد الله على الإسلام ومعرفة حقّه عليكم في محمدٍ ﷺ، إذ جعلنا من أمته المرحومة، ثم أضجعوني على سريري، ثم عجّلوا بي، فإذا أنتم وضعتموني للصلاة فليتقدّم بها من هو أقربكم بي نسباً، وأكبركم سنّاً، فليكبّر خمساً، يبدأ في الأولى في أولها بالحمد لله والثناء عليه والصلاة على سيدي وسيد المرسلين جميعاً، ثم الدعاء للمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، ثم الدعاء للذين سبقونا بالإيمان، ثم ليكبّر الرابعة، فيحمد الله ويُهلّله، ويُكبّره ويُسلّم في الخامسة، ثم أقلّوني فأبلغوا بي حفرتي، ثم لينزل أقربكم إليّ قرابةً، وأودّكم محبةً، وأكثروا من حمد الله وذكره، ثم ضعوني على شقي الأيمن واستقبلوا بي القبلة، وحلّو كفني عن رأسي ورجليّ، ثم سدّوا اللحد باللَّبِن، واحثوا تراباً عليَّ، واخرجوا عني وخلّوني وعملي فكلكم لا يُغني عني شيئاً، ولا يدفع عني مكروهاً، ثم قفوا بأجمعكم فقولوا خيراً إن علمتم، وأمسكوا عن ذكر شرٍّ إن كنتم عرفتم، فإني مأخوذ من بينكم بما تقولون وما تلفظون به، ولا تدعوا

باكيةٌ عندي فإن المعول عليه يُعذّب. رحم الله أمرأ اتّعظ
وفكّر فيما حتّم الله على جميع خلقه من الفناء، وقضى
عليهم من الموت الذي لا بدّ منه، فالحمد لله الذي توحّد
بالبقاء وقضى على جميع خلقه الفناء، ثم لينظر ما كنت فيه
من عزّ الخلافة، هل أغنى ذلك عني شيئاً إذ جاء أمر الله!
لا والله، ولكن أضعف عليّ به الحساب، فيا ليت
عبد الله بن هارون لم يكن بشراً، بل ليته لم يكن خلقاً،
يا أبا إسحاق ادنُ مني واتعظ بما ترى، وخذ بسيرة أخيك
في القرآن، واعمل في الخلافة إذا طوّقكها الله عمل
المريد لله، الخائف من عقابه وعذابه، ولا تغترّ بالله
ومهلته، فكأن قد نزل بك الموت. ولا تغفل أمر الرعية.
الرعية الرعية، العوام العوام، فإن الملك بهم وبتعهدك
المسلمين والمنفعة لهم. الله الله فيهم وفي غيرهم من
المسلمين، ولا ينهينَّ إليك أمر فيه صلاح للمسلمين
ومنفعته لهم إلا قدَّمته وآثرته على غيره من هواك، وخذ من
أقويائهم لضعفائهم، ولا تحمل عليهم في شيءٍ، وأنصف
بعضهم من بعضٍ بالحق بينهم، وقرّبهم وتأنّهم، وعجّل
الرحلة عني، والقدوم إلى دار ملكك بالعراق، وانظر
هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم فلا تغفل عنهم في كل
وقتٍ. والخرّميّة فأغزهم ذا حزمٍ وصرامةٍ وجلدٍ، وأكْنِفه
بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة، فإن

طالت مدتهم فتجرّد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك، واعمل في ذلك عمل مقدّم النيّة فيه، راجياً ثواب الله عليه. واعلم أن العظة إذا طالت أوجبت على السامع لها والوصي بها الحجة، فاتق الله في أمرك كله، ولا تُفْتَن.

ثم دعا أخاه المعتصم أبا إسحاق بعد ساعةٍ حين اشتدّ به الوجع، وأحسّ بمجيء أمر الله، فقال له: يا أبا إسحاق عليك عهد الله وميثاقه وذِمّة رسول الله ﷺ، لتقومنّ بحق الله في عباده، ولتؤثرنّ طاعته على معصيته إذ أنا نقلتها من غيرك إليك، قال: اللهم نعم، قال: فانظر من كنت تسمعني أُقدّمه على لساني فأضعف له التقدمة، عبد الله بن طاهر أقرّه على عمله ولا تَهجْه، فلقد عرفت الذي سلف منكما أيام حياتي وبحضرتي، استعطفه بقلبك، وخُصّه بِبِرّك، فقد عرفت بلاءه وغناءه عن أخيك، وإسحاق بن إبراهيم فأشركه في ذلك، فإنه أهل له. وأهل بيتك، فقد عرفت أنه لا بقية فيهم، وإن كان بعضهم يُظهر الصيانة لنفسه، عبد الوهاب عليك به من بين أهلك، فقدّمه عليهم، وصيّر أمرهم إليه. وعبد الله بن أبي داود فلا يفارقك، وأشركه في المشورة في كل أمرك، فإنه موضع لذلك منك، ولا تتخذ بعدي وزيراً تلقي إليه شيئاً، فقد علمت ما نكبني به يحيى بن

أكثم في معاملة الناس وخُبث سيرته حتى أبان الله ذلك منه في صحةٍ مني، فصرت إلى مفارقته، قالياً له، غير راضٍ بما صنع في أموال الله وصدقاته، لا جزاه الله عن الإسلام خيراً، وهؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فأحسن صحبتهم، وتجاوز عن مسيئهم، واقبل من محسنهم، وصِلاتهم فلا تغفلها في كل سنةٍ عند محلها، فإن حقوقهم تجب من وجوهٍ شتّى.

اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، اتقوا الله واعملوا له، اتقوا الله في أموركم كلها.

أستودعكم الله ونفسي، وأستغفر الله مما سلف، وأستغفر الله مما كان مني، إنه كان غفّاراً، فإنه ليعلم كيف ندمي على ذنوبي، فعليه توكلت من عظيمها، وإليه أُنيب ولا قوة إلا بالله، حسبي الله ونعم الوكيل، وصلى الله على محمدٍ نبيّ الهدى والرحمة.

وتوفي المأمون يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلةً بقيت من شهر رجب سنة ٢١٨هـ. ولما توفي حمله ابنه العباس وأخوه أبو إسحاق محمد المعتصم إلى «طرسوس» فدفناه في دارٍ كانت لخادمٍ لهارون الرشيد يدعى «خاقان»، وصلى عليه أخوه محمد المعتصم.

الفصل الثاني

خلافة محمد المعتصم

بويع محمد المعتصم في اليوم الذي توفّي فيه أخوه عبد الله المأمون، وأشفق الناس من منازعة العباس بن المأمون لعمه بالخلافة، غير أنه لم يحدث شيء من هذا إذ بايع العباس عمه، وسارت الأمور سيراً حسناً، غير أن المتلوّنين من الجند قد استغلّوا الأمر، وأرادوا الفتنة، وإيقاع الخلاف بين المعتصم وابن أخيه، فأظهروا الشغب، وطلبوا العباس ونادوه باسم الخلافة دون علمه ولا رغبة منه، وإنما إثارةً للفتنة ودعوةً للشر.

أرسل محمد المعتصم إلى العباس فأحضره، فبايع العباس عمه، وخرج إلى الجند، فقال لهم: ما هذا الحبّ البارد، قد بايعت عمي، وسلّمت الخلافة إليه، فما كان من الجند إلا أن هدؤوا وسكنوا، غير أنهم إن هدؤوا ذلك الوقت لكنهم أضمروا إثارة الخلاف بين الطرفين واستغلال موضوع الخلافة والتخطيط لذلك.

قطع المتلوّنون الأمل من أن يكون لهم أثر على الخليفة محمد المعتصم حيث كان قد عرف هدفهم، وأخذ حذره منهم، وبدأ يعمل لضرب مسعاهم، ويسعى للوقوف في وجههم، غير أنهم وجّهوا جهدهم ناحية العباس بن المأمون فكان عدد منهم بجانبه يثنون عليه ويرفعونه، ويلمزون من عمه المعتصم ويفترون، ومع الزمن وكثرة الكلام لان العباس بن المأمون إليهم، وأخذ يحمل على عمّه حتى ثقل الحمل وأُوغر الصدر.

وخرج المعتصم للجهاد سنة ٢٢٣هـ، ووجد المتلوّنون في خروجه فرصةً لتنفيذ بعض الأهداف؛ فأثاروا العباس وشدّوا من همته، فوافقهم، وسار معهم في تنفيذ عمليةٍ لقتل عمه، ولكن تسرّبت المعلومات إلى المعتصم فألقى القبض مباشرةً على العباس بن المأمون وعلى القادة الذين معه من المتلوّنين، وأودعهم السجن، وشدّد عليهم، وعذبهم، وقد مات العباس في «منبج» سنة ٢٢٣هـ ـ كما سيأتي ـ.

لنعد إلى بلدة «طرسوس» حيث دُفن الخليفة السابق عبد الله المأمون، وكان قد أمر ببناء «بُطوانة» ليكون ثغراً للمسلمين، وحمل السلاح وآلات الحرب إلى هذا الثغر، وإسكان أعدادٍ كبيرةٍ من المرابطين فيه،

غير أن الخليفة الجديد محمد المعتصم قد رأى أن هذا الثغر غير حصين كبقية الثغور في المناطق الجبلية، وأن تسليحه لا يغني كثيراً في الدفاع عنه، إذ هو بعيد عن مقرّ الخلافة فيصعب إنجاده بسرعةٍ وإمداده بالوقت المناسب، كما أن الروم قد بدؤوا يتنمّرون، وجنودهم أخذوا يستأسدون، والمتلوّنون صاروا يفسدون في مواطنهم وفي مركز الخلافة، لذا رأى أن لا فائدة من هذا الثغر الجديد فأمر بهدمه، وحمل ما كان فيه من السلاح والآلة، كما أمر بصرف من أمر المأمون بإسكانهم هناك وعودتهم إلى بلدانهم.

بعد أن تمّ ما أمر به الخليفة توجّه إلى بغداد حسب وصية الخليفة السابق المأمون بالعجلة بالرحلة إلى دار ملكه بالعراق، وكان معه في مسيره إلى بغداد العباس بن المأمون، وقد وصل الركب إلى دار السلام «بغداد» يوم السبت مستهل شهر رمضان من سنة ٢١٨هـ.

الحركات:

١ - الخرمية:

وجد المتعصّبون من المتلوّنين أن العمل السياسي لا يُثمر، وأن النفاق وإظهار الإسلام لا يُجدي، وأن النهوض

من بين الفتن لا يُعطي نتيجة، وأن التعاطف مع فئةٍ مسلمةٍ لا يُفيد، وأن الدعوة إلى جماعةٍ إسلاميةٍ لا يوصل إلى الهدف، وأن فكرة إضعاف المسلمين بالتفرقة بينهم لا تعطينا السلاح، فالمسلمون مسلمون وإن اختلفوا فالطريق واحدة، وإن تفرقوا فالفكرة واحدة، وإن تقاتلوا فالعقيدة واحدة، فأيّ فريقٍ منهم انتصر تابع الجهاد، وأيّ جانبٍ ساد نهج سبيل الشرع، وقاتل من لا يدين بدينه، وأعمل السيف في رقاب أعدائه، وانساح في الأرض بكل اتجاهٍ يدعو الناس إلى إسلامه، وهذا ما لا يرضاه زرادشت لأنه لا يمكن أن تعود للنار شُعلتها. لذا فقد أعلنت جماعات كثيرة من هؤلاء المتلوّنين الذين يُخفون ما لا يُظهرون، أعلنت دخولها في الخرّمية، وأظهرت ذلك صراحةً، وذلك في منطقة الجبال من همدان وأصبهان وماسبذان، وتجمّعت أعداد منهم في معسكرٍ لهم قرب همدان، فوجّه إليهم الخليفة المعتصم القوات، وكان آخر ما وجّه إليهم بقيادة إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، وعقد له على الجبال في شهر شوال سنة ٢١٨هـ، فسار إليهم في شهر ذي القعدة من السنة نفسها، وقرئ كتابه بالفتح الذي أحرزه بإذن الله يوم التروية (٨ ذي الحجة ٢١٨هـ). وكان قد قتل منهم قرب همدان ستين ألفاً، وهرب الباقون إلى بلاد الروم.

كان التوجه إلى بلاد الروم يهدف إلى إخفاء الانتماء والتعمية عن الأصل وإلا انكشف أمر المتلوّنين الذي مضى على إخفائه وإظهار غيره ما يقرب من قرنين يُربّى الولد على ذلك، ويُدرّب ويُعطى التعليمات، ويعلم أنه إذا أسرّ ما يخفى غاب عن الحياة بطريقةٍ ما، غير أن التنشئة على ذلك من الصغر وتكرار الفكرة تثبت في النفس وترسخ في العقل، وتصبح عنده حقيقةً يجب العمل لها، وعقيدةً يموت عليها، ويرضى عنه إله النور حسب تصوّرهم. وفي الوقت نفسه فإن الذهاب إلى بلاد الروم فيه النجاة بالنفس، وربما لا نجاة بسوى ذلك حسب قناعتهم، لأنهم أينما ذهبوا تطالهم يد الخليفة، وبينهم وبين أعداء المسلمين من جهة الشرق مسافات طويلة على حين أن البعد عن قيصر الروم يُعدّ قليلاً، كما أن قيصر الروم أقوى أعداء المسلمين وأكثرهم قتالاً للخليفة، كما أن ذهابهم إلى الروم يوطّد الصلة مع قيصر فربما يدعمهم فيحصلون على تأييده ومساعداته ويحصل على إثارة الفتن في بلاد المسلمين، ويكونون عيوناً له، وقوةً خلف جيوش الخليفة، وربما كانوا فيها ما داموا يُظهرون الإسلام، ويعيشون مع أهله، ويُقاتلون أحياناً معهم، وإن كان وجودهم فيهم ما يزيد المسلمين إلا خبالاً، وقد تقع الفتنة وهذا ما يبغيه المتلوّنون.

ورجع إسحاق بن إبراهيم من قتال الخرّمية في الجبال يوم الأحد لإحدى عشرة ليلةً خلت من شهر جمادى الأولى سنة ٢١٩هـ، ومعه الأسرى من الخرّمية والمستأمنة، وقيل: إن إسحاق بن إبراهيم قتل منهم في حربه لهم نحواً من مائة ألف.

عقد المعتصم للقائد المدعو «الإفشين» وهو (حيدر بن كاوس) على إقليم الجبال، وأمره بالتوجه لقتال بابك[1] الخرّمي وذلك يوم الخميس لليلتين خلتا

(١) بابك الخرمي: كان فقيراً وضيعاً إذ مات أبوه وهو صغير، أو كان مجهول النسب، وعمل راعياً لمساعدة أمه. هذه النشأة التي نشأ عليها قد أثرت على نفسيته وجعلته يحقد على مجتمعه وعلى العقيدة التي يدين بها هذا المجتمع. وعمل خادماً بعد ذلك عند «جاويذان بن سهرك» فأخذ عنه بعض الأفكار الخرمية التي على العقيدة بالتناسخ، والاعتقاد بوجود إلهين أحدهما للنور والآخر للظلمة، والقول بإباحة النساء التي تُشجع أصحاب الشهوة بالانخراط في صفوف هذه الحركة وقبول أفكار تحت تأثير الولوغ بالشهوات وتحقيق الملذات، وقد وجدت هذه الأفكار لها مكاناً في نفسية بابك المعقّدة والتي تحمل حقداً على المجتمع الذي يعيش فيه. وعندما مات سيده «جاويذان بن سهرك» ورثه بابك بتدبيرٍ وتخطيطٍ من زوجة «جاويذان» التي تزوجت بعد ذلك بابك. وكانت من قبل مباحةً له حسب تعاليم الخرّمية. =

من جمادى الآخرة سنة ٢٢٠هـ. فعسكر الإفشين في مصلى بغداد، ثم سار إلى «بَرْزَنْد»[١]، فلما وصل إليها

= وجد بابك جماعته الخرميّة على شيء من القوة فتحرّك عام ٢٠١هـ، واستطاع أن يُحرز بعض النصر، وأن يستولي على بعض القلاع، وكان المأمون لا يزال في مدينة «مرو» فعندما جاء إلى بغداد أرسل الولاة وبعث الجيوش لقتال بابك، وجرى قتال بين يحيى بن معاذ والي الجزيرة الفراتية وبين بابك الخرمي سنة ٢٠٤هـ، ولم يظفر أحدهما بالآخر، ومات يحيى بن معاذ سنة ٢٠٥هـ، واستمر قتال بابك الخرميّ من قبل والي أذربيجان وأرمينية عيسى بن محمد بن أبي خالد الذي بعث حملةً إلى الخرمي استمر تجهيزها سنةً كاملةً، ولكنها هزمت.

ولّى المأمون على أذربيجان وأرمينية زريق بن علي بن صدقة الأزدي فندب أحمد بن الجنيد لقتال بابك الخرمي سنة ٢٠٩هـ فتمكّن بابك من أسر أحمد بن الجنيد.

ولّى المأمون على أذربيجان إبراهيم بن الفضل التجيبي، فكان القتال مع بابك ضعيفاً، وأرسل المأمون سنة ٢١٢هـ محمد بن حميد الطوسيّ لقتال بابك فتمكّن بابك من محمد بن حميد الطوسي، وقتله سنة ٢١٤هـ، وكان لقتله أكبر الأثر في نفس المأمون بل ونفوس المسلمين جميعاً، وقد رثاه أبو تمام في قصيدته المشهورة التي مطلعها:

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر   فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وقوي أمر بابك الخرمي فبعث له المأمون سنة ٢١٨هـ إسحاق بن إبراهيم، وتوفي المأمون ولم يعلم نتائج القتال، وقد انتصر إسحاق على الخرمية.

(١) بَرْزَنْد: موقع في جهات أردبيل يبعد عنها ٧٥ كيلومتراً، يقع =

عسكر بها، ورمم الحصون فيما بينها وبين «أردبيل»، وأنزل محمد بن يوسف بموضع يقال له «خُشّ» فاحتفر به خندقاً، وأنزل الهيثم الغنوي القائد من أهل الجزيرة في موقع يقال «أَرْس» فرمم حصنه، وحفر حوله خندقاً، وأنزل عَلّوَية الأعور من قواد الأبناء في حصنٍ مما يلي أردبيل يسمى حصن النهر. فكانت السابلة والقوافل تخرج من أردبيل معها من يحرسها حتى تصل إلى حصن النهر، ثم يحرسها صاحب حصن النهر إلى الهيثم الغنوي، ويخرج الهيثم فيمن جاء من ناحيته حتى يسلمه إلى أصحاب حصن النهر، ويحرس من جاء من أردبيل حتى يصير إلى الهيثم وصاحب حصن النهر في منتصف الطريق فيسلم صاحب حصن النهر من معه إلى الهيثم، ويسلم الهيثم من معه إلى صاحب حصن النهر، فيسير هذا مع هؤلاء، وهذا مع هؤلاء، وإذا سبق أحدهما صاحبه إلى الموضع لم يَجُزْه حتى يجيء الآخر، فيرفع كل واحدٍ منهما من معه إلى صاحبه ليقوم بحراسته، هذا إلى أردبيل وهذا إلى عسكر الإفشين، ثم يحرس الهيثم الغنوي من كان معه إلى أصحاب أبي سعيد، وقد

= في المرتفعات كان خربة فعمرها الإفشين، وحصّنها، وجعلها قلعة له.

خرجوا فوقفوا على منتصف الطريق، معهم قوم، فيدفع أبو سعيد وأصحابه من معهم إلى الهيثم، ويدفع الهيثم من معه إلى أصحاب أبي سعيد، فيصير أبو سعيد وأصحابه بمن في القافلة إلى «خُشّ»، وينصرف الهيثم وأصحابه بمن صار في أيديهم إلى «أرشق» حتى يصيروا به من غد، فيدفعوهم إلى عَلُّوية الأعور وأصحابه ليوصلوهم إلى حيث يريدون، ويصير أبو سعيد ومن معه إلى «خُشّ»، ثم إلى عسكر الإفشين، فيتلقّاه صاحب مارّة الإفشين، فيأخذ منه من في القافلة، فيؤديهم إلى عسكر الإفشين، فلم يزل الأمر على هذا. وإذا قُبض على أحدٍ من عيون بابك الخرّمي سيق إلى الإفشين، ولم يكن الإفشين ليقتل الجواسيس أو يُعذّبهم بل يكرمهم، ويسألهم عن معاملة بابك لهم، وما كان يدفعه لهم، فيضاعف له المبلغ ويصبح عيناً له، ويستفيد منه ما دام يجول في المنطقة، ويعرف ما يجري فيها، وعلى صلةٍ ببابك الخرّميّ، وربما على علمٍ بما يخطط له ويسعى إليه.

ضبط الإفشين ما تحت يده، ومسك بيده الخيوط التي تصل إلى بابك والتي تخرج من عنده، كما جهّز نفسه واستعدّ فالمعركة قادمة، فكل كان يترصّد الآخر، ويتقصّى أخباره.

بعث المعتصم إلى الإفشين مالاً عطاءً للجند ونفقات، وحمله إليه القائد «بغا الكبير» فسار به فلما وصل إلى مدينة أردبيل بلغ بابك الخرميّ خبر ذلك فاستعدّ لقطع الطريق على بغا الكبير والقافلة التي معه لقتله وسلب المال الذي يحمله، ووصل إلى الإفشين خبر استعداد بابك للانقضاض على قافلة بغا فدبّر الإفشين الحيلة وأبلغها إلى بغا، وهي أن تخرج القافلة بالمال وبعد سير عدة فراسخ يرجع فريق بالمال إلى أردبيل وتتابع القافلة سيرها.

كان بابك قد نصب كمائن وتعبّأ برجاله وخيله وجاءت القافلة، وكان بغا قد رجع المال. انقضّ رجال بابك وخيله على القافلة فقتلوا رجالها وسلبوا ما كان معهم، غير أنهم لم يجدوا مالاً، وعرفوا أنه قد فاتهم. لجأ رجال بابك إلى الحيلة فأخذوا ألبسة الذين قتلوهم ولبسوها كي يتنكّروا عسى أن تصل القافلة التي فيها المال وتظنّهم من المسلمين.

دخل الهيثم الغنوي حصنه في «أرشق» وإذ ببابك يصل أيضاً، ويطلب من الهيثم أن يخلي الحصن، وكان الخبر قد وصل إلى الإفشين فأسرع فأدرك بابك وهو جالس على شرفةٍ تجاه الحصن، وكان مع الهيثم في

الحصن ستمائة راجل، وأربعمائة فارس.

وقعت الحرب بين المسلمين الذين مع الإفشين والهيثم وبين الخرّمية الذين مع بابك، فقُتل من جماعة بابك ألف رجل، وفرّ هو مع عددٍ يسيرٍ ممن كان معه إلى «موقان» وبعد مدةٍ سار إلى مدينته «البذّ». وأقام الإفشين في «أرشق» وقتاً قصيراً وبعدها رجع إلى معسكر في «برزند».

جاءت قافلة تموين إلى الإفشين وهو في معسكره في «برزند» وبينما كانت القافلة في طريقها من «خُشّ» إلى «برزند» بإمرة صالح السقاء، إذ خرج عليهم أحد قادة بابك فأخذ القافلة وقتل من فيها، وقتل من كان مع صالح، وأُفلت صالح مع من أفلت.

بقي معسكر الإفشين دون تموين، فاشتدّ الأمر على أهل المعسكر، وبدأت المجاعة تظهر فكتب الإفشين إلى صاحب «المراغة» يأمره بحمل التموين إليهم، والسرعة بذلك فإن الناس قد قحطوا وجاعوا، فوجّه إليه صاحب «المراغة» قافلةً ضخمةً فيها ما يقرب من ألف ثور وأنواع التموين الأخرى مع جندٍ يحمونها، فخرجت عليها سرية لبابك الخرّميّ بإمرة «طرخان» فتغلّبوا على رجال القافلة واستاقوا القافلة ونهبوا ما

فيها. وربما كان هذا على علم من الإفشين وبتخطيطٍ منه، لأن الأصل أن السرية لا يدري بها بابك وأصحابه.

أصاب الناس ضيق شديد في معسكر «برزند» فكتب الإفشين إلى صاحب «السيروان» أن يحمل إليه طعاماً، فحمل إليه طعاماً كثيراً، وقدم بغا بالمال والرجال وما كان معه مما بعثه إليه المعتصم، قدم بغا إلى الإفشين سنة ٢٢١هـ أي بعد مسيره الأول بحدود السنة، ففرجت الكربة، وأعطى الإفشين الجند أُعطياتهم، وأنفق عليهم.

أرسل الإفشين بغا في عسكرٍ لينزل في خندق محمد حميد، ويحفره ويُرمّمه وينزل فيه، ففعل، ورحل أبو سعيد من «خُشّ» يبغي بابك، ورحل كذلك الإفشين من «برزند» فتوافوا بموضعٍ يقال «دزوذ»، فاحتفر الإفشين بها خندقاً، وبنى حوله سوراً، ونزل هو وأبو سعيد في الخندق مع من جاء إليه من المتطوعين، فكان بينه وبين «البَذّ» بلد بابك عشرة كيلومترات، ثم إن بغا تجهّز، وحمل معه الزاد من غير أن يكون الإفشين كتب إليه ولا أمره بذلك، ودخل بغا بلدة «البذّ» فنزل في وسطها، وأقام بها يوماً واحداً، ثم وجّه ألف رجلٍ فخرج إليهم عسكر من عساكر بابك فقتلوا عدداً ممن

بعث إليهم بغا وأسروا عدداً، وبعثوا بأسيرين منهم إلى الإفشين، وقالوا لهما: اذهبا إلى الإفشين، وأعلماه ما نزل بأصحابكم، فوصلا إلى الإفشين فأخبرا بقضيتهما، فقال: فعل بغا شيئاً من غير أن نأمره.

رجع بغا إلى خندق محمد بن حميد شبيهاً بالمنهزم، وكتب إلى الإفشين يعلمه ذلك، ويسأله المدد، ويعلمه أن العسكر مفلول، فوجّه إليه الإفشين أخاه الفضل بن كاوس، وأحمد بن الخليل بن هشام، وابن جوشن وبعض القادة، فداروا حول عسكره فلما رأوهم سرّوا بهم، وارتفعت معنوياتهم.

وكتب الإفشين إلى بغا يعلمه أن يغزو بابك في يومٍ سمّاه له، ويأمره أن يغزو في ذلك اليوم نفسه ليحاربه من ناحيتين. فخرج الإفشين في ذلك اليوم من «درْوز» يريد بابك وخرج بغا من خندق محمد بن حميد، فهاجت ريح باردة ومطر شديد، فلم يكن للناس عليها صبر لشدة البرد وشدة الريح، فانصرف بغا إلى عسكره، وقاتلهم الإفشين من الغد، فانتصر الإفشين على أصحاب بابك، وأخذ عسكره وخيمته وامرأةً كانت معه في العسكر، ونزل الإفشين في معسكر بابك.

تجهّز بغا من الغد وصعد مرتفعاً فأصاب العسكر

الذي كان مقيماً بإزائه، قد انصرف إلى بابك، ورحل بغا إلى موضعه، وعلى مقدمته داود سياه وقد علم من سؤال من قبض عليهم أن بابك قد مضى إلى بلدته «البذّ».

تعب رجال بغا لما لاقوا فطلب بغا من قائد مقدمته داود سياه أن يلتمس جبلاً حصيناً، فاختار جبلاً منيعاً فارتقى بعسكره فرأى أعلام الإفشين ومعسكره، فقال: هذا موضعنا إلى غدوةٍ، وننحدر من الغد إلى الكافر ـ إن شاء الله ـ، فجاءهم في تلك الليلة سحاب ومطر وثلج وبرد كثير، فلم يقدر أحد حين أصبحوا أن ينزل من الجبل من شدّة البرد وكثرة الثلج، فلما كان اليوم الثالث قال الناس لقائدهم بغا: قد فني ما معنا من الزاد، وقد أضرّ بنا البرد، فانزل بنا على أية حالةٍ كانت إما راجعين وإما إلى الكافر. وكان في أيام الضباب، فبيّت بابك الإفشين، وانصرف الإفشين عنه إلى معسكره. وانحدر بغا يريد «البذّ» حتى إذا صار في بطن الوادي نظر إلى السماء فإذا بالسحاب والضباب قد انجلى كلاهما، وإذا الدنيا طيّبة دافئة غير رأس الجبل الذي كان عليه.

عبّأ بغا أصحابه ميمنةً وميسرةً ومقدّمةً وتقدّم يريد

«البذّ» وهو لا يشكّ أن الإفشين في موضع معسكره، فمضى حتى صار على جانب جبل «البذّ»، ولم يبق بينه وبين أن يشرف على بيوت «البذّ» إلا أن يرتقي ما يقرب من نصف ميل، غير أنه علم أن أصحاب بابك قد بيّتوا للإفشين وهزموه وتراجع إلى خندقه، فوقف بغا وشاور أصحابه، فقال بعضهم: هذا باطل، هذه خدعة ليس من هذا شيء، وقال بعض الذين يعرفون المنطقة: هذا جبل أعرفه من صعد إلى قمته نظر إلى عسكر الإفشين، فصعد بغا والفضل بن كاوس (أخو الإفشين) وجماعة آخرون، فأشرفوا على الموضع فلم يروا عسكر الإفشين فأيقنوا أنه قد مضى، وتشاوروا، فرأوا أن ينصرف الناس راجعين في صدر النهار قبل أن يجنّ عليهم الليل، فأمر بغا قائد مقدمته داود سياه بالانصراف.

انطلق داود وجدّ في السير في غير الطريق التي جاء بها، وانطلق بغا والفضل بن كاوس في الساقة، وظهرت طلائع بابك، فكلما نزل بغا وجماعته من جبل، ارتقته طلائع بابك، يتراءون لهم مرةً ويغيبون عنهم أخرى، وهم في ذلك يقتفون آثارهم، حتى كان الوقت بين صلاتي الظهر والعصر، فنزل بغا ليتوضّأ ويصلّي، فدنت منهم طلائع بابك، فبرزوا لهم، وصلّى بغا،

ووقف في وجوههم، فوقفوا حين رأوه، فخاف بغا على عسكره أن ينازلوا طلائع بابك من ناحيةٍ، ويدور عليهم من ناحيةٍ ثانيةٍ في بعض الجبال والمضائق قوم آخرون، فشاور من حضره، وقال: لست آمن أن يكونوا قد جعلوا هؤلاء مشغلةً، يحبسوننا عن المسير، ويقدّمون أصحابهم ليأخذوا على أصحابنا المضائق. فقال له الفضل بن كاوس: ليس هؤلاء أصحاب نهار، وإنما هم أصحاب ليل، وإنما يُتخوّف على أصحابنا من الليل، فوجّه إلى داود سياه ليسرع السير ولا ينزل، ولو صار نصف الليل حتى يجاوز المضيق، ونقف نحن هاهنا، فإن هؤلاء ما داموا يروننا في وجوههم لا يسيرون، فنماطلهم وندافعهم قليلاً قليلاً حتى تجيء الظلمة، فإذا جاءت الظلمة لم يعرفوا لنا موضعاً، وأصحابنا يسيرون فينفذون أولاً فأولاً، فإن أُخذ علينا نحن المضيق تخلّصنا من طريق آخر.

وأشار بعضهم على بغا فقال: إن العسكر قد تقطع ولا يدرك أوله آخره، والناس قد رموا بسلاحهم، وقد بقي المال والسلاح على البغال، وليس معه أحد، ولا نأمن أن يخرج عليه من يأخذ المال والسلاح، كما كان معهم أسير يُدعى ابن جويدان، وأرادوا أن يفادوا

به كاتباً لعبد الرحمٰن بن حبيب ـ أسره بابك ـ فعزم بغا أن يعسكر بالناس حين ذُكر له المال والسلاح والأسير، فوجّه إلى داود سياه: حيثما رأيت جبلاً حصيناً، فعسكر عليه.

عدل داود سياه إلى جبلٍ فعسكر عليه، وضرب معسكراً لبغا على طرف الجبل، فجاء بغا ونزل في مكانه، وكان الناس قد تعبوا وكلّوا، وفنيت أزوادهم، فباتوا على تعبئةٍ وحراسةٍ من ناحية مرتقى الجبل، فجاءهم العدوّ من ناحيةٍ ثانيةٍ يتسلّقون تسلّقاً حتى صاروا إلى معسكر بغا وبيّتوا العسكر، فخرج بغا راجلاً حتى نجا، ووجد دابةً فركبها، ومرّ بابن البَعيث فأصعده على تلٍّ، ثم انحدر به إلى معسكر محمد بن حميد، فوافاهم في جوف الليل، وأخذت الخرّميّة المال والسلاح والعتاد، وأسيرهم ابن جويدان، ولم يتبعوا الناس، وكان قد قُتل ابن جوشن، وجناح السكريّ، وأحد أقرباء الفضل بن سهل، وجرح الفضل بن كاوس أخو الإفشين، وسار الناس منهزمين حتى وافوا بغا، وهو في خندق محمد بن حميد، فأقام بغا في خندق محمد بن حميد فأتاه كتاب الإفشين يأمره بالعودة إلى «المراغة»، فمضى بغا إلى المراغة، ومكث الناس حتى انقضى فصل الشتاء.

كان طرخان أحد قادة بابك، وكان كبير المنزلة عنده، فلما حلّ فصل الشتاء سنة ٢٢١هـ، استأذن طرخان سيده بابك في أن يقضي فصل الشتاء في قريته ناحية المراغة فأذن له، وكان الإفشين يترصّد طرخان ويتمنّى الظفر به لمكانته من بابك، فلما مشى طرخان إلى قريته كتب الإفشين إلى «تُرْك» مولى إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وهو بالمراغة، أن يسير ليلاً إلى تلك القرية ـ ووصفها له ـ وأن يقتل طرخان أو يبعث به إليه أسيراً، فمشى «تُرْك» ليلاً إلى طرخان فقتله، وبعث برأسه إلى الإفشين.

وجّه المعتصم مدداً للإفشين بإمرة جعفر بن دينار الخياط، وأتبعه بـ(إيتاخ) يحمل له ثلاثين مليون درهم عطاءً للجند وللنفقات العامة، وذلك في سنة ٢٢٢هـ. وقد وصل ذلك كله إليه وهو في «برزند» فلما حلّ الربيع ورحل الشتاء بأعاصيره وبرده تحرّك الإفشين إلى مكان يقال له «كلان روذ» فاحتفر فيه خندقاً، وكتب إلى أحد قادته وهو أبو سعيد أن يغادر «برزند» ويتجه نحوه، فأتى، فأمره أن يقيم مقابله، ففعل، وأقام معسكراً له، واحتفر خندقاً له، وكان بينهما ما يقرب من ثلاثة أميالٍ. وبعد خمسة أيامٍ أتاه من أخبره أن أحد قادة

بابك يدعى «آذين» قد عسكر بإزاء الإفشين، وأنه قد وضع عياله في جبل يُشرف على «روذ الروذ»، وقال: لا أتحصن من اليهود ـ يعني المسلمين ـ ولا أُدخل عيالي حصناً، وذلك أن بابك قال له: أدخل عيالك الحصن، قال: أنا أتحصن من اليهود! والله لا أُدخلنهم حصناً أبداً ـ ذلك أن نفسه قد غرّته ـ فنقلهم إلى هذا الجبل.

وجّه الإفشين إلى «آذين» ظفر بن العلاء السعديّ والحسين بن خالد المدائني من قواد أبي سعيد في جماعةٍ من الفرسان، فساروا ليلتهم من «كلان روذ» حتى انحدروا في مضيق لا يمرّ فيه راكب واحد إلا بجهدٍ، فأكثر الناس قادوا دوابهم، وانسلّوا رجلاً خلف رجلٍ، وكان الإفشين قد أمرهم أن يصيروا قبل طلوع الشمس على «روذ الروذ».

وصل المسلمون إلى الجبل الذي فيه عيال «آذين» قبل السحر، فأخذوا عيال «آذين» وانطلقوا بهم، وكان الإفشين قد رسم لهم الخطة وأحكمها، وأخذ الاحتياط الكافي لذلك. وبلغ آذين الخبر بأخذ عياله فجاء بأصحابه والتقى مع المسلمين قبل أن يدخلوا المضيق، واستنقذوا بعض العيال، وكان الإفشين قد وجّه

المظفر بن كيدر في جماعةٍ نجدةً للمسلمين، ثم بعث خلفه أبا سعيد، وأتبعهما بقوةٍ ثالثةٍ، فلما رأى أصحاب بابك النجدات ولّوا هاربين، ونجا المسلمون وساروا إلى معسكر الإفشين ومعهم بعض عيال آذين الذين لم يستطع جنده استنقاذهم.

عزم الإفشين على السير إلى بلدة بابك الخرّميّ «البذّ»، فانطلق من «كلان روذ» حيث يعسكر، وأخذ يتقدّم ببطءٍ على غير عادته عندما كان يزحف إلى هدفٍ له، فكان يتقدّم أربعة أميالٍ تقريباً ويعسكر، وكتب إليه المعتصم يأمره أن يكون العسكر على أهبة الاستعداد دائماً مع أخذ الاحتياط بالحراسة، ففريق على ظهور الخيل، وآخرون طلائع وحرساً، وفريق في راحتهم وذلك من مداهمةٍ مفاجئةٍ، وشعر الناس بالتعب الجسمي، والألم النفسي نتيجة الخوف رغم أن بينهم وبين عدوهم ثلاثين كيلومتراً، فقالوا للإفشين: أقدم بنا فإما لنا وإما علينا، فقال: أنا والله أعلم أن ما تقولون حق، ولكن أمير المؤمنين أمرني بهذا، ولا أجد منه بُدّاً.

تحرّك الإفشين نحو «البذّ»، فلما رأى بابك أن أصحابه قد أُحيط بهم أقبل في جماعةٍ معه يسألون عن

الإفشين، فقال لهم بعض العسكر: من هذا؟ فقالوا: هذا بابك يسأل عن الإفشين، فأرسل أبو دلف إلى الإفشين يعلمه ذلك، فأرسل الإفشين رجلاً يعرف بابك، فنظر إليه، ثم عاد إلى الإفشين، فقال: نعم هو بابك، فركب إليه الإفشين، فدنا منه حتى صار في موضعٍ يسمع كلامه وكلام أصحابه، والحرب مشتبكة في ناحية آذين، فقال له: أريد الأمان من أمير المؤمنين، فقال له الإفشين: قد عرضت عليك هذا، وهو لك مبذول متى شئت، فقال: قد شئت الآن، على أن تؤجلني أجلاً أحمل فيه عيالي، وأتجهز. فقال له الإفشين: قد نصحتك والله غير مرةٍ فلم تقبل نصيحتي، وأنا أنصحك الساعة، خروجك اليوم في الأمان خير من غدٍ. قال: قد قبلت أيها الأمير، وأنا على ذلك، فقال له الإفشين: فابعث بالرهائن الذين كنت سألتك. قال: نعم، أما فلان وفلان فهم على ذلك التل، فمر أصحابك بالتوقّف.

جاء رسول الإفشين ليردّ الناس، فقيل له: إن أعلام أهل فرغانة قد دخلت البذّ، وصعدوا بها القصور. فركب وصاح بالناس، فدخل ودخلوا، وصعد الناس بالأعلام فوق قصور بابك. وكان قد جعل في

قصوره الأربعة ستمائة رجلٍ كمائن، فوافاهم الناس، وصعدوا بالأعلام فوق القصور، وامتلأت شوارع البذّ وميدانها بالناس، وفتح رجال الكمائن أبواب القصور وخرجوا رجّالة يقاتلون الناس، ومرّ بابك حتى دخل الوادي، واشتغل الإفشين وقادته كلهم بالحرب على أبواب القصور، فقاتل الخرّميّة قتالاً شديداً، ولكن أُحرقت الدور، وهُدّمت القصور، وقُتل من كان من الخرمية في ذلك الموقع عن آخرهم. وأخذ الإفشين أولاد بابك ومن كان معهم من عيالهم في البذّ، حتى إذا كان المساء أمر الإفشين الناس بالانصراف فانصرفوا، ورجع الإفشين إلى خندقه في «روذ الروذ».

ورجع الإفشين في الغد إلى البذّ فهدّم ما لم يهدم، وأحرق ما يجب حرقه، وبقي ثلاثة أيامٍ على ذلك يفعل نهاراً، ثم رجع وعلم أن بابك قد أفلت مع بعض أصحابه. فكتب الإفشين إلى ملوك أرمينية وبطارقتها يعلمهم أن بابك قد هرب مع عدّةٍ من أصحابه، وصار إلى وادٍ، وخرج منه إلى ناحية أرمينية، وهو مار بكم، وأمرهم أن يحفظ كل واحدٍ منهم ناحيته، ولا يسلكها أحد إلا أخذوه حتى يعرفوه، فجاءت العيون إلى الإفشين، فأخبروه بموضعه في الوادي، وكان وادياً كثير الشجر والعشب،

طرفه بأرمينية وطرفه الآخر بأذربيجان، ولا يمكن للخيل أن تنزله، ولا يُرى من يستخفي فيه لكثرة شجره ومياهه، إنما كان غيضةً واحدةً، ويسمى هذا الوادي غيضة، فوجّه الإفشين إلى كل موضعٍ يعلم أن منه طريقاً ينحدر منه إلى تلك الغيضة، أو يمكن لبابك أن يخرج من ذلك الطريق، فصيّر على كل طريقٍ وموضعٍ من هذه المواضع عسكراً فيه ما بين أربعمائةٍ إلى خمسمائة مقاتلٍ، ووجّه معهم الروّاد ليقفوهم على الطريق، وأمرهم بحراسة الطريق في الليل لئلا يخرج منه أحد. وكان يوجّه التموين إلى كل عسكرٍ، وكانت هذه العساكر خمسة عشر عسكراً.

ورد كتاب للإفشين من أمير المؤمنين المعتصم فيه أمان لبابك. فدعا الإفشين من كان استأمن إليه من أصحاب بابك، وفيهم ابن له كبير، أكبر ولده، فقال له وللأسرى: هذا ما لم أكن أرجوه من أمير المؤمنين، ولا أطمع فيه أن يكتب إليه وهو في هذه الحال بأمانٍ، فمن منكم يأخذه ويذهب به إليه؟ فلم يجسر على ذلك أحد منهم، فقال بعضهم: أيها الأمير ما فينا أحد يجترئ أن يلقاه بهذا، فقال له الإفشين: ويحك يفرح بهذا، قالوا: أصلح الله الأمير نحن أعرف بهذا منك، قال: فلا بُدَّ لكم أن تهبوا لي أنفسكم، وتوصلوا هذا

الكتاب إليه. فقام رجلان منهم، فقالا له: اضمن لنا أنك تجري على عيالنا، فضمن لهما الإفشين ذلك، وأخذا الكتاب وتوجّها فلم يزالا يدوران في الغيضة حتى أصاباه، وكتب معهما ابن بابك بكتاب يعلمه الخبر، ويسأله أن يصير إلى الأمان، فهو أسلم له وخير، فدفعا إليه كتاب ابنه، فقرأه، وقال: أيّ شيءٍ كنتم تصنعون؟ قالا: أُسر عيالنا في تلك الليلة، ولم نعرف موضعك فنأتيك، وكنا في موضعٍ تخوّفنا أن يأخذونا، فطلبنا الأمان. فقال للذي كان الكتاب معه: هذا لا أعرفه، ولكن أنت يا ابن الفاعلة، كيف اجترأت على هذا أن تجيئني من عند ذاك ابن الفاعلة! فأخذه وضرب عنقه، وشدّ الكتاب على صدره مختوماً لم يفضّه، ثم قال للآخر: اذهب وقل لذاك ابن الفاعلة - يعني ابنه - حيث يكتب إليّ، وكتب إليه: لو أنك لحقت بي واتبعت دعوتك حتى يجيئك الأمر يوماً كنت ابني، وقد صحّ عندي الساعة فساد أمّك الفاعلة، يا ابن الفاعلة عسى أن أعيش بعد اليوم! قد كنت باسم هذه الرياسة وحيثما كنت أو ذكرت كنت ملكاً، ولكنك من جنسٍ لا خير فيه، أو تعيش أربعين سنةً وأنت عبد ذليل.

ورحل بابك من موضعه، ووجّه مع الرجل ثلاثة نفرٍ حتى أصعدوه من موضعٍ من المواضع، ثم لحقوا ببابك، فلم يزل في تلك الغيضة حتى فني زاده، وخرج مما يلي طريقاً كان عليه بعض العساكر، وكان موضع الطريق جبلاً ليس فيه ماء، فلم يقدر العسكر أن يقيم على الطريق لبعده عن الماء، فتنحّى العسكر عن الطريق إلى قرب الماء، وصيّروا دليلين وفارسين على طرف الطريق يحرسونه، وبين الطريق والعسكر نحو من ميلٍ ونصف الميل، كان ينوب على الطريق كل يومٍ فارسان ودليلان، فبيناهم ذات يومٍ نصف النهار، إذ خرج بابك وأصحابه، فلم يروا أحداً، ولم يروا الفارسين ولا الدليلين، وظنوا أن ليس هناك عسكر، فخرج هو وأخواه، وأمه، وامرأة له. خرجوا من الطريق، وساروا يريدون أرمينية، ونظر إليهم الفارسان والدليلان، فوجّهوا إلى العسكر، وعليه أبو الساج: إنا قد رأينا فرساناً يمرون ولا ندري من هم. فركب الناس وساروا، فنظروا إليهم من بُعدٍ وقد نزلوا على عين ماءٍ يتغدّون عليها، فلما نظروا إلى الناس بادر بابك فركب وركب من كان معه فأفلت، وأُخذ أحد أخويه وأمه والمرأة التي كانت معه، فوجّه أبو الساج بهم إلى العسكر.

انطلق بابك متجهاً نحو أرمينية حتى دخلها، يسير في الجبال متخفياً، يكمن تارةً وينطلق أخرى، ولكن لا زاد معه فاحتاج إلى طعامٍ. وكان بطارقة أرمينية جميعاً قد تحفّظوا بنواحيهم وأطرافهم، وأوصوا مسالحهم ألا يجتاز عليهم أحد إلا أخذوه حتى يعرفوه، فكان أصحاب المسالح كلهم متحفظين، وأصاب بابك الجوع، فأشرف فإذا هو بحراثٍ يحرث على فدانٍ له في بعض الأودية، فقال بابك لغلامه: انزل إلى هذا الحراث، وخذ معك دنانير ودراهم، فإن كان معه خبز فخذه وأعطه، وكان للحرّاث شريك ذهب لحاجته، فنزل الغلام إلى الحراث، فنظر إلى شريكه من بعيدٍ، فوقف بالبعد يفرق من أن يجيء إلى شريكه، وهو ينظر ما يصنع شريكه، فدفع الغلام إلى الحراث شيئاً، فجاء الحراث فأخذ الخبز، فدفعه إلى الغلام وشريكه قائم ينظر إليه، ويظنّ أنما اغتصبه خبزه، ولم يظنّ أنه أعطاه شيئاً، فعدا إلى المسلحة، فأعلمهم أن رجلاً جاءهم عليه سيف وسلاح، وأنه أخذ خبز شريكه من الوادي، فركب صاحب المسلحة ـ وكان في الجبال ابن سنباط ـ ووجّه إلى سهل بن سنباط بالخبر، فركب ابن سنباط وجماعة معه حتى جاءه مسرعاً، فوافى الحراث والغلام عنده، فقال له: ما هذا؟ قال له الحراث: هذا رجل مرّ

بي، فطلب مني خبزاً فأعطيته، فقال للغلام: وأين مولاك؟ قال: هاهنا ـ وأومى إليه ـ فأتبعه وأدركه وهو نازل، فلما رأى وجهه عرفه، فترجّل ابن سنباط عن دابته، ودنا منه فقبّل يده، ثم قال له: يا سيّداه! إلى أين؟ قال: أريد بلاد الروم، فقال له: لا تجد موضعاً ولا أحداً أعرف بحقك، ولا أحق أن تكون عنده مني، تعرف موضعي، ليس بيني وبين السلطان عمل، ولا تدخل على أحدٍ من أصحاب السلطان وأنت عارف بقضيتي وبلدي، وكل من هاهنا من البطارقة إنما هم أهل بيتك، قد صار لك منهم أولاد، وذلك أن بابك كان إذا علم أن عند بعض البطارقة ابنةً أو أختاً جميلةً وجّه إليها يطلبها، فإن بعث بها إليه وإلا بيّته وأخذها، وأخذ جميع ماله من متاع وغير ذلك، وصار به إلى بلده غصباً.

ثم قال ابن سنباط له: صر عندي في حصني، فإنما هو منزلك، وأنا عبدك، كن في شتوتك هذه ثم ترى رأيك، وكان بابك قد أصابه الضرّ والجهد فركن إلى كلام سهل بن سنباط، وقال له: لا يستقيم أن أكون أنا وأخي في موضعٍ واحدٍ، فلعله أن يُعثر بأحدنا فيبقى الآخر، ولكن أُقيم أنا عندك، ويتوجّه أخي عبد الله إلى

ابن اصطفانوس، لا ندري ما يكون، وليس لنا خلف يقوم بدعوتنا. فقال له ابن سنباط: ولدك كثير، قال: ليس فيهم خير. وعزم على أن يكون أخوه في حصن ابن اصطفانوس ـ وكان يثق به ـ فصار هو مع ابن سنباط في حصنه، فلما أصبح عبد الله مضى إلى حصن ابن اصطفانوس، وأقام بابك عند سهل بن سنباط، وكتب ابن سنباط إلى الإفشين يعلمه أن بابك عنده في حصنه. فكتب إليه: إن كان هذا صحيحاً فلك عندي وعند أمير المؤمنين ـ أيّده الله ـ الذي تحب، وكتب يجزيه خيراً، ووصف الإفشين صفة بابك لرجل من خاصته، ممن يثق به، ووجّه به إلى ابن سنباط، وكتب إليه يُعلمه أنه قد وجّه إليه برجل من خاصته، يحب أن يرى بابك ليحكي للإفشين ذلك. فكره ابن سنباط أن يوحش بابك، فقال للرجل: لا يمكن أن تراه إلا في الوقت الذي يكون منكباً على طعامه يتغدّى، فإذا رأيتنا قد دعونا بالغداء فالبس ثياب الطباخين الذين معنا على هيئة علوجنا وتعال كأنك تقدّم الطعام، أو تناول شيئاً، فإنه يكون منكبّاً على الطعام فتفقّد منه ما تريد، فاذهب فاحكه لصاحبك.

ففعل ذلك في وقت الطعام، فرفع بابك رأسه

فنظر إليه فأنكره، فقال: من هذا الرجل؟ فقال له ابن سنباط: هذا رجل من أهل خراسان، منقطع إلينا منذ زمانٍ، نصراني، فلقن ابن سنباط الأشروسني ذلك، فقال له بابك: منذ كم أنت هاهنا؟ قال: منذ كذا وكذا سنة، قال: وكيف أقمت هاهنا؟ قال: تزوجت هاهنا، قال: صدقت إذا قيل للرجل: من أين أنت؟ قال: من حيث امرأتي.

رجع الرجل إلى الإفشين فأخبره، ووصف له جميع ما رأى من بابك، ووجّه الإفشين أبا سعيد وآخر إلى سهل بن سنباط، وكتب إليه معهما، وأمرهما إذا صارا إلى بعض الطريق قدّما كتابه إلى ابن سنباط مع علجٍ من العلوج، وأمرهما ألا يخالفا ابن سنباط فيما يشير به عليهما. ففعلا ذلك، فكتب إليهما ابن سنباط في المقام بموضع ـ قد سمّاه ووصفه لهما ـ إلى أن يأتيهما رسوله. فلم يزالا مقيمين بالموضع الذي وصفه لهما، ووجه إليهما ابن سنباط بالزاد، حتى تحرّك بابك للخروج إلى الصيد، فقال له: هاهنا وادٍ طيّب، وأنت مغموم في جوف هذا الحصن! فلو خرجنا ومعنا بازٍ وباشق وما نحتاج إليه، فنتفرَّج إلى وقت الغداء بالصيد، فقال له بابك: إذا شئت. فأنفذ ليركبا بالغداة، وكتب

ابن سنباط إلى أبي سعيد وصاحبه ليخبرهما ما قد عزم عليه، ويأمرهما أن يوافياه واحد من هذا الجانب من الجبل والآخر من الجانب الثاني في عسكرهما، وأن يسيرا متخفّيين مع صلاة الصبح، فإذا جاءهما رسوله أشرفا على الوادي، فانحدروا عليه إذا رأوهم وأخذوهم.

فلما ركب ابن سنباط وبابك بالغداة؛ وجّه ابن سنباط رسولاً إلى أبي سعيد ورسولاً إلى صاحبه الآخر، وقال لكل رسولٍ: جئ بهذا إلى موضع كذا، وجئ بهذا إلى موضع كذا، فأشرفا علينا، فإذا رأيتمونا فقولوا: هم هؤلاء خذوهم، وأراد أن يُشبّه على بابك، فيقول: هذه خيل جاءتنا فأخذتنا، ولم يحب أن يدفعه إليهما من منزله، فصار الرسولان إلى أبي سعيد وصاحبه، فمضيا بهما حتى أشرفا على الوادي، فإذا هما ببابك وابن سنباط، فنظرا إليه وانحدرا وأصحابهما عليه، هذا من هاهنا، وهذا من هاهنا، وأخذاهما ومعهما البواشق، وعلى بابك دُرّاعة بيضاء وعمامة بيضاء، وخفّ قصير. فلما نظر إلى العساكر قد أحدقت به وقف، فنظر إليهما، فقالا له: انزل، فقال: من أنتما؟ فقال أحدهما: أنا أبو سعيد، وقال الآخر، أنا

بوزيارة، فقال: نعم، وثنى رجله ونزل، وكان ابن سنباط ينظر إليه، فرفع رأسه إلى ابن سنباط فشتمه، وقال: إنما بعتني لليهود بالشيء اليسير، لو أردت المال وطلبته لأعطيتك أكثر مما يعطيك هؤلاء، فقال له أبو سعيد: قم فاركب، قال: نعم. فحملوه وجاءوا به إلى الإفشين، فلما قرب من العسكر صعد الإفشين «برزند» فضربت له خيمة على برزند، وأمر الناس فاصطفوا صفين، وجلس الإفشين في بناءٍ عسكري، وجاءوا به يمشي بين الصفين حتى وقف بين يدي الإفشين فنظر إلى الإفشين، ثم قال: انزلوا به إلى العسكر، وأُمر به فأُدخل بيتاً، ووكل به رجالاً من أصحابه.

كان عبد الله أخو بابك لما أقام بابك عند ابن سنباط صار عبد الله إلى عيسى بن يوسف بن اصطفانوس، فلما أخذ الإفشين بابك، وصيّره معه في عسكره ووكّل به، أُعلم بمكان عبد الله أنه عند ابن اصطفانوس، فكتب الإفشين إلى ابن اصطفانوس أن يُوجّه إليه بعبد الله، فوجّه به ابن اصطفانوس إلى الإفشين، فلما صار في يد الإفشين حبسه مع أخيه في بيتٍ واحدٍ، ووكّل بهما قوماً يحفظونهما.

كتب الإفشين إلى الخليفة المعتصم يعلمه أنه أخذ

بابك وأخاه، فكتب المعتصم إليه يأمره بالقدوم بهما عليه، فلما أراد الإفشين أن يسير به إلى العراق وجّه إلى بابك، فقال: إني أريد أن أسافر بك فانظر ما تشتهي من بلاد أذربيجان، فقال: أشتهي أن أنظر إلى مدينتي. فوجّه معه الإفشين قوماً في ليلةٍ مقمرةٍ إلى «البذّ» حتى دار فيها، ونظر إلى القتلى والبيوت إلى وقت الصبح، ثم ردّه إلى الإفشين.

كان وصول بابك إلى الإفشين بـ«برزند» لعشرٍ خلون من شهر شوال سنة ٢٢٢هـ.

انطلق الإفشين ببابك إلى المعتصم بالعراق فوصل به إلى سامراء ليلة الخميس لثلاثٍ خلون من شهر صفر سنة ٢٢٣هـ. فأمر المعتصم بذبح بابك، وإرسال رأسه إلى خراسان، وصلب بدنه عند العقبة بسامراء، كما أمر بحمل عبد الله أخي بابك مع ابن شَرْوِين الطبري إلى إسحاق بن إبراهيم ببغداد، وأمر أن يُفعل به كما فُعل بأخيه بابك.

وكان عدد من قتل بابك من المسلمين من يوم أن تحرك سنة ٢٠١هـ حتى ألقي القبض عليه ٢٢٢هـ مائتين وخمسمائة وخمسةٍ وخمسين ألفاً، وهزم عدداً من القادة، وأُسر مع بابك ثلاثة آلافٍ وثلاثمائةٍ وتسعة من

أرمينية

أذربيجان

أرس

تبريز

أردبيل

موقان

البذ

أرشق

برزند

خش

المراغة

قرماسين

همذان

بغداد

أصفهان

الناس، واستنقذ ممن كان في يده من المسلمات وأولادهن سبعة آلافٍ وستمائة إنسانٍ. وصار في يد الإفشين من أسرة بابك سبعة عشر رجلاً وثلاث وعشرون امرأةً.

وتوّج المعتصم الإفشين، وألبسه وشاحين، ووصله بجائزةٍ ضخمةٍ وبمبلغٍ يوزّعه على عسكره، وعقد له على السند، وأدخل عليه الشعراء يمدحونه، وأمر بصلاتٍ للشعراء، وذلك يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الثاني سنة ٢٢٣هـ[١]، ويُنظر إلى تصرّفات الإفشين مع بابك بدقةٍ إذ فيها حرص عليه وخوف من أن يمسّه أحد بسوءٍ قبل أن يصل إليه.

وكان مما قاله أبو تمام:

بـذّ الـجلاد الـبـذّ فـهـو دفـيـن
مـا إن بـه إلا الـوحـوش قـطـينُ[٢]
لـم يُقْر هذا الـسيف هذا الصبر في
هـيـجـاء إلا عـزّ هـذا الـديـن

(١) تاريخ الطبري: بتصرّفٍ.
(٢) البذّ: بلدة بابك. قطين: جمع قاطن وهو الساكن.

قد كان عذرة سُودَدٍ فافتضّها
بالسيف فَحْلُ المشرق الإفشين[1]

فأعادها تعوي الثعالب وسطها
ولقد تُرى بالأمس وهي عرين

جادت عليها من جماجم أهلها
ديم أمارتها طلىّ وشؤون[2]

كانت من الدم قبل ذاك مفاوزاً
غُبراً فأمست منه وهي معين

بحر من الهيجاء يهفو ماله
إلا الجناجن والضلوع سفين[3]

لاقاهم ملك حباه بالعُلا
جَرِسٌ وجانا خرّه الميمون[4]

مَلك تضيء المكرمات إذا بدا
للمُلك منه غُرّة وجبين

---

(١) عذرة: البكارة.
(٢) الأمارة: العلامة. طلى: الدم. شؤون: مجرى الدمع، والمقصود هنا الدمع.
(٣) الجناجن: عظام الصدر. سفين: جمع سفينة وهي المركب في البحر.
(٤) جرس، وجاناخرّة: جدّان من جدود الإفشين.

ساس الأمور سياسة ابن تجاربٍ

رمقته عين الملك وهو جنين

لانـت مـهـزّتـه فـعـزّ وإنـمـا

يشتدّ بأس الرمح حين يلين[1]

وترى الكريم يعزّ حين يهون[2]

وترى اللئيم يهون[3] حين يهون

قاد المنايا والجيوش فأصبحت

ولها بأرشقَ قسطل عثنون[4]

فتركت أرشق وهي يرقى باسمها

صمّ الصفا فتفيض منه عيون

لو تستطيع الحجّ يوماً بلدة

حجّت إليها كعبة وحجون

لاقاك بابك وهو يزأر وانثنى

وزئيره قد عاد وهو أنين

---

(١) المهزّة: الحركة.

(٢) يهون: يتواضع.

(٣) يهون: يحتقر.

(٤) أرشق: بلدة في أذربيجان، القسطل غبار الحرب. عثنون: الذقن الطويلة.

لاقى شكائم منك معتصميَّةً
أهزلن جبر الكفر وهو سمين[1]
لما رأى عَلَمَيْك ولّى هارباً
ولكفره طرف عليه سخين
ولّى ولم يُظلم وهل ظُلِمَ امرؤ
حثّ النجاءَ وخلفه التنين
أوقعت في أبرشتويم وقائعاً
أضحكن سنّ الدهر وهو حزين[2]
أوسعتهم ضرباً تُهدّ به الطُلى
ويخفّ منه المرء وهو ركين[3]
ضرباً كأشداق المخاض وتحته
طعنٌ كأنّ وجاءه طاعون[4]
بأس تفلّ به الصفوف وتحته
رأي تفلّ به العقول رزين[5]

---

(١) الشكائم: جمع شكيمة وهي الأنفة والانتصار من الظلم.
(٢) ابرشتويم: اسم موضع.
(٣) الطُلى: الأعناق. ركين: الوقور الرزين.
(٤) أشداق المخاض: كناية عن الاتساع والشدّة. الوجاء: الإسراع.
(٥) تفلّ: تهزم.

أخلى جلادُك صدره ولقد يرى

وفـؤاده مـن نـجـدةٍ مـسـكـون

شجنت تجاربه فضول غُرامه

إن التجارب للعقول شجون(١)

وعشيّة التلّ انصرفت وللهدى

شـوق إلـيـك مُـدلّـه وحـنـيـن(٢)

عبأ الكمين له فظلٌ لحينه

وكمينه المخفي عليه كمين

يا وقعةً ما كان أعتق يومها

إذ بعضُ أيام الزمان هجين(٣)

لو أن هذا الفتح شكٌّ لاكتفت

منه القلوب فكيف وهو يقين

وأخذتَ بابك حائلاً دون المنى

ومنى الضلال مياههن أجون(٤)

طعن التلهّف قلبَه ففؤادُه

من غير طعنة فارسٍ مطعون

---

(١) شجنت: أحزنت. الغُرام: الجيش الكثير العرمرم.
(٢) المدلّه: الساهي القلب، والتائه العقل لعشقه ونحوه.
(٣) هجين: غير أصيل.
(٤) الأجون: متغير الطعم واللون والرائحة.

ورجا بلادَ الروم فاستعصى به
أجلّ أصمّ عند النجاء حرون[1]

هيهات لم يعلم بأنك لو ثوى
بالصين لم تبعُد عليك الصين

ما نال ما قد نال فرعون ولا
هامان في الدنيا ولا قارون

بل كان كالضحاك في سطواته
بالعالمين وأنت أفريدون

فيشكرُ الإسلامُ ما أوليته
واللّهُ عنه بالوفاء ضمين

٢ ـ محمد بن القاسم[2] بن عمر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب:

خرج بـ«الطالقان» من بلاد خراسان يدعو إلى

---

(١) النجاء: الخلاص. الحرون: الذي لا ينقاد.

(٢) محمد بن القاسم بن عمر، أبو جعفر: من أهل الكوفة، كانت العامة تلقبه بالصوفي للبسه الصوف، وغالباً ما كان يلبس الصوف الأبيض، وكان أبيض مليح الوجه، تام الشكل، وقد وخَطَه الشيب وتكهل.
كان زاهداً يرى رأي الزيدية الجارودية، وذهب بعض طوائف هذه الفرقة إلى أنه حيّ لم يمت، وأنه سيخرج ليملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً، وأنه مهدي هذه الأمة. وأكثر هؤلاء =

الرضا من آل محمدٍ ﷺ، فاجتمع إليه بها ناس كثير، وكانت بينه وبين قادة عبد الله بن طاهر وقعات بناحية الطالقان وجبالها، فهُزم محمد بن القاسم وأصحابه، فخرج هارباً يريد بعض كور خراسان، وكان أهله كاتبوه، فلما صار بـ«نَسا»، وبها والد لبعض من معه، ومضى الرجل الذي معه من أهل «نَسا» إلى والده ليسلّم عليه، فلما لقي أباه سأله عن الخبر، فأخبره بأمرهم، وأنهم يقصدون كورة كذا، فمضى أبو ذلك الرجل إلى عامل «نَسا»، فأخبر بأمر محمد بن القاسم، فذُكر أن العامل بذل له عشرة آلاف درهمٍ على دلالته عليه، فدلّه عليه، فجاء العامل إلى محمد بن القاسم، فأخذه واستوثق منه، وبعث به إلى عبد الله بن طاهر، فبعث به عبد الله بن طاهر إلى الخليفة المعتصم، فقُدِم به عليه يوم الاثنين لأربع عشرة ليلةً خلت من شهر ربيع الثاني سنة ٢١٩هـ، فحُبس بسامراء عند مسرور الخادم في محبسٍ ضيّقٍ، يقدّر بثلاثة أذرعٍ بذراعين، فمكث فيه

= في جبال طبرستان، والديلم، وكور خراسان. ومنهم من يقول: إنه مات بـ«واسط»، وله مشهد هناك، والجارودية نسبة إلى أبي الجارود زياد بن المنذر الهمذاني الخراساني، وكذلك يسمى: سرحوب، وقد مات سنة ١٥٠هـ.

ثلاثة أيامٍ، ثم حوّل إلى موضعٍ أوسع من ذلك، وأُجري عليه طعام، ووُكِّل به قوم يحفظونه، فلما كانت ليلة الفطر، واشتغل الناس بالعيد والتهنئة احتال للخروج، فهرب من الحبس بالليل، وأنه دُلّي إليه حبل من كُوّةٍ كانت في أعلى البيت، يدخل عليه منها الضوء، فلما أصبحوا أتوا بالطعام للغداء افتُقِد، فجُعل لمن دلّ عليه مائة ألف درهمٍ، وصاح بذلك الصائح، فلم يعرف له خبر[1].

٣ ـ الزّطّ:

عاث الزط الفساد على طريق البصرة، فقطعوا الطريق، واحتملوا الغلّات من البيادر بـ«كَسْكَر» وما يليها من البصرة، وأخافوا السبيل، فوجّه إليهم الخليفة المعتصم عجيف بن عنبسة في شهر جمادى الآخرة من سنة ٢١٩هـ، فرتّب الخيل في كل دربٍ من دروب البريد تسرع بالأخبار، فكان الخبر يخرج من عند عجيف فيصل إلى المعتصم في اليوم نفسه. وكان الذي يتولّى النفقة على عجيف من قبل المعتصم محمد بن منصور كاتب إبراهيم بن البختريّ، فلما صار عجيف

---

(١) تاريخ الطبري.

إلى واسط، ضرب معسكره بقرية أسفل واسط يقال لها «الصافية»، وأقام فيه خمسة آلاف رجلٍ، وصار عجيف إلى نهرٍ يتفرّع من دجلة يقال له «بَرْدُودا» فلم يزل مقيماً عليه حتى سدّه. وقيل: إن عجيف قد ضرب معسكره بقرية أسفل واسط يقال لها «نجيدا»، ووجّه هارون بن نعيم بن الوضاح القائد الخراساني إلى موضعٍ يقال له: «الصافية» في خمسة آلاف رجلٍ، ومضى عجيف في خمسة آلافٍ إلى «بَرْدُودا» فأقام عليه حتى سدّه، وسدّ أنهاراً أخرى كان الزطّ يدخلون منها ويخرجون، فحصرهم من كل وجهٍ، وكان من الأنهار التي سدّها عجيف نهر يقال له «العروس» فلما أخذ عليهم طرقهم حاربهم، وأسر منهم خمسمائة رجلٍ، وقتل منهم في المعركة ثلاثمائة رجلٍ، فضرب أعناق الأسرى، وبعث برؤوسهم إلى باب المعتصم، ثم أقام عجيف بإزاء الزط خمسة عشر يوماً، فظفر منهم بخلق كثيرٍ. وكان رئيس الزط رجل يقال له: «محمد بن عثمان»، وكان صاحب أمره والقائم بالحرب «سملق»، وبقي عُجيف يقاتلهم تسعة أشهرٍ.

اشتدّ عُجيف على الزط حتى قهرهم فطلبوا منه الأمان، فخرجوا إليه في شهر ذي الحجة من سنة

٢١٩هـ على أنهم آمنون على دمائهم وأموالهم، وكان عددهم سبعةً وعشرين ألفاً، منهم اثنا عشر ألفاً من المقاتلة، فجعلهم في السفن حتى نزل بهم «الزعفرانية»، فأعطى أصحابه دينارين دينارين جائزةً، وأقام بالزعفرانية يوماً، ثم أركبهم الزوارق حتى دخل بهم بغداد يوم عاشوراء سنة ٢٢٠هـ. وأقاموا في السفن ثلاثة أيام، ثم انتقلوا إلى الجانب الشرقي من بغداد، فدفعوا إلى بشر بن السميدع، فذهب بهم إلى خانقين، ثم نقلوا إلى ثغر «عين زربة»، فأغارت عليهم الروم، فاجتاحوهم فلم يفلت منهم أحد[١].

وضع المسلمون الزط بثغر «عين زربة» ليُبعدوا أذاهم عن المسلمين ويعيدوهم إلى الطريق السوي، فمن جهةٍ أمامهم الروم وهم على حذرٍ واستعدادٍ، ومن جهةٍ ثانيةٍ يوجد المسلمون المرابطون بالثغر، وعيونهم يقظة، وعقولهم متفتحة وهم على تعبئةٍ وانتباهٍ، وحذرٍ واستعدادٍ أيضاً لذا فليس أمام الزط إلا العودة إلى العمل والانضباط والتقيّد بالنظام. أما الروم فقد ظنّوا أن الزط قد وُضعوا على حدودهم للإغارة عليهم

---

(١) تاريخ الطبري.

والإفساد في بلادهم، لذا فقد استعدّوا لذلك وهيّؤوا قوةً ضخمةً وأغاروا عليهم فجأةً فكان في ذلك قضاء عليهم، وكانت نهايتهم.

٤ ـ مخالفة مازيار:

كان مازيار بن قارن بن ونداهُرْمز بطبرستان، وكان منافراً لآل طاهرٍ ولاة خراسان، فكان لا يبعث إليهم بالخراج، على حين يجب أن يصل إليهم ما دامت طبرستان تتبع خراسان. وكان المعتصم يكتب إليه يأمره بحمل الخراج إلى عبد الله بن طاهر، فيقول: لا أحمله إليه، ولكني أحمله إلى أمير المؤمنين، فكان المعتصم إذا حمل مازيار إليه الخراج، يأمر إذا بلغ المال همذان رجلاً من قبله أن يستوفيه ويسلّمه إلى صاحب عبد الله بن طاهر ليردّه إلى خراسان، واستمرّ الأمر سنواتٍ، ونافر آل طاهر حتى تفاقم الأمر بينهم.

كان القائد الإفشين يسمع من المعتصم أحياناً كلاماً يدلّ على أنه يريد عزل آل طاهر عن خراسان، فلما ظفر الإفشين ببابك الخرمي، ونزل من المعتصم المنزلة التي لم يتقدّمه فيها أحد، طمع في ولاية خراسان، وبلغته منافرة مازيار آل طاهر، فرجا الإفشين

أن يكون ذلك سبباً في عزل عبد الله بن طاهر عن خراسانَ، فدسّ الإفشين الكتب إلى مازيار يستميله بالدهقنة، ويعلمه ما هو عليه من المودة له، وأنه قد وُعِد ولاية خراسان، فدعا ذلك مازيار إلى ترك حمل خراجه إلى عبد الله بن طاهر، وواتر عبد الله بن طاهر الكتب فيه إلى المعتصم، حتى أوحش المعتصم منه وأغضبه عليه، وحمل ذلك مازيار إلى أن وثب على ما تحت يده، وخالف الخليفة المعتصم، ومنع الخراج، وضبط جبال طبرستان وأطرافها.

وكان ذلك مما يَسُرّ الإفشين ويطمعه في الولاية. فكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر يأمره بمحاربة مازيار، وكتب الإفشين إلى مازيار يأمره بمحاربة عبد الله بن طاهر، ويعلمه أنه يقوم له عند المعتصم بما يحبّ، وكاتبه مازيار أيضاً، ولا يشكّ الإفشين أن مازيار سيواقف عبد الله بن طاهر ويقاومه، حتى يحتاج المعتصم إلى أن يُوجّهه وغيره إليه.

لما عزم مازيار على الخلاف دعا الناس إلى البيعة، فبايعوه كرهاً، وأخذ منهم الرهائن فحبسهم في برج «الأصبهبذ»، وأمر مستأجري الضياع بالوثوب على أصحاب الضياع، وانتهاب أموالهم. وكان مازيار

يكاتب بابك الخرميّ[1]، ويحرّضه، ويعرض عليه النصرة. فلما فرغ المعتصم من أمر بابك الخرميّ أشاع الناس أن أمير المؤمنين يريد المسير إلى «قرماسين»، ويوجّه الإفشين إلى «الري» لمحاربة مازيار، فلما سمع مازيار بإرجاف الناس بذلك، أمر أن يمسح البلد، خلا مَن قاطع على ضياعه بزيادة العشرة ثلاثة، ومن لم يقاطع رجع عليه، فحسب ما عليه من الفضل، ولم يحسب له النقصان.

ثم صاغ مازيار كتاباً إلى عامله على الخراج، وكان يقال له: شاذان بن الفضل، ونسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الأخبار تواترت علينا، وصحّت عندنا بما يرجف به جهّال أهل خراسان وطبرستان فينا، ويولّدون

(١) يلاحظ أن المتلوّنين يعودون غالباً إلى أرومةٍ واحدةٍ، ووثنيةٍ قديمةٍ واحدةٍ، وأنهم يدعمون بعضهم بعضاً وقت الشدّة والأزمات وإن اختلفت أطماعهم بل وإن تباينت رغباتهم، وتعارضت تطلعاتهم وذلك لأن توجّههم واحد، وهدفهم واحد، وهو إعادة ما فقدوا من دولةٍ زالت وعقيدةٍ دالت، وصحيح أنه تبعهم عاطفةً دون تفكير آخرون من أروماتٍ ثانيةٍ تأثّروا بهم عاطفةً فأخذوا منهم وقلّدوهم فدخلتهم شبهات بل وانحرافات وهم لا يدرون فصارت عندهم عادات وعقائد.

علينا من الأخبار ويحملون عليه رؤوسهم من التعصّب لدولتنا، والطعن في تدبيرنا، والمراسلة لأعدائنا، وتوقّع الفتن، وانتظار الدوائر فينا، جاحدين للنعم مستقلّين للأمن والدعة والرفاهية والسعة التي آثرهم الله بها فما يرد الرأي قائد ولا مشرّق ولا مغرّب، ولا يأتينا رسول صغير ولا كبير إلا قالوا كيت وكيت، ومدّوا أعناقهم نحوه، وخاضوا فيما قد كذّب الله أحدوثتهم، وخيّب أمانيهم فيه مرّةً بعد مرّةٍ، فلا تنهاهم الأولى عن الآخرة، ولا يزجرهم عن ذلك تقية ولا خشية، كل ذلك نُغضي عليه، ونتجرّع مكروهه، استبقاءً على كافتهم، وطلباً للصلاح والسلامة لهم إلحاحاً، فلا يزيدهم استبقاؤنا إلا لجاجاً، ولا كفّنا عن تأديبهم إلا إغراءً، إن أخّرنا عنهم افتتاح الخراج نظراً لهم ورفقاً بهم، قالوا: معزول، وإن بادرنا به، قالوا: لحادثٍ أمر، لا يزدجرون عن ذلك بالشدّة إن أغلظنا، ولا برفقٍ إن أنعمنا، والله حسبنا وهو ولينا، عليه نتوكل وإليه ننيب، وقد أمرنا بالكتاب إلى بندار «آمل» و«الرويان» في استغلاق الخراج في عملهما، وأجّلناهما في ذلك إلى سلْخ تيرماه، فاعلم ذلك، وجرد جبايتك، واستخرج ما على أهل ناحيتك كملاً، ولا يمضينّ عنك تيرماه ولك درهم باقٍ، فإنك إن خالفت ذلك إلى غيره

لم يكن جزاؤك عندنا إلا الصلب، فانظر لنفسك، وحام عن مهجتك، وشمّر في أمرك، وتابع كتابك إلى العباس، وإياك والتغرير، واكتب بما يحدث منك من الانكماش والتشمير، فإنا قد رجونا أن يكون في ذلك مشغلة لهم عن الأراجيف، ومانع عن التسويف، فقد أشاعوا في هذه الأيام أن أمير المؤمنين أكرمه الله صائر إلى «قرماسين»، وموجه الإفشين إلى «الريّ». ولعمري لئن فعل ـ أيده الله ـ ذلك، إنه لمما يسرّنا الله به، ويؤنسنا بجواره، ويبسط الأمل فيما قد عوّدنا من فوائده وإفضاله، ويكبت أعداءه وأعداءنا، ولن يهمل أكرمه الله أموره، ويرفض ثغوره، والتصرّف في نواحي ملكه لأراجيف مرجفٍ بعماله، وقول قائلٍ في خاصته، فإنه لا يسرّب ـ أكرمه الله ـ جنده إذا سرّب، ولا ينندب قواده إذا ندب، إلا إلى المخالف. فاقرأ كتابنا هذا على من بحضرتك من أهل الخراج، ليبلّغ شاهدهم غائبهم، وعنّف عليهم في استخراجه، ومن همّ بكسره فليبد بذلك صفحته، لينزل الله به ما أنزل بأمثاله، فإن لهم أسوةً في الوظائف وغيرها بأهل جرجان والريّ وما والاهما، فإنما خفّف الخلفاء عنهم خراجهم، ورُفعت الرفائع عنهم للحاجة التي كانت إليهم في محاربة أهل الجبال ومغازي الديلم الضلّال، وقد كفى أمير المؤمنين

ـ أعزّه الله ـ ذلك كله، وجعل أهل الجبال والديلم جنداً وأعواناً، والله المحمود.

فلما ورد كتاب مازيار على شاذان بن الفضل عامله على الخراج، أخذ الناس بالخراج، فجبى جميع الخراج في شهرين، وكان يُجبى في اثني عشر شهراً، في كل أربعة أشهرٍ الثلث.

بعث عبد الله بن طاهر إلى مازيار جيشاً بقيادة الحسن بن الحسين بن مصعب لحماية جرجان، كما وجّه عبد الله بن طاهر أيضاً حيّان بن جبلة في أربعة آلافٍ إلى قومس. ووجه المعتصم من قبله محمد بن إبراهيم بن مصعب أخا إسحاق بن إبراهيم في جمعٍ كثيفٍ، وضمّ إليه الحسن بن قارن الطبري. ووقعت خلافات في طبرستان بين مازيار ورجاله، وصار مازيار أسيراً، وأصبح في يد عبد الله بن طاهر، فوعده عبد الله بن طاهر إن هو أظهره على كتب الإفشين أن يسأل أمير المؤمنين الصفح عنه، وأعلمه عبد الله أنه قد علم أن الكتب عنده، فأقرّ مازيار بذلك، فطُلبت الكتب فوجدت، وهي عدة كتبٍ، فأخذها عبد الله بن طاهر، فوجّه بها مع المازيار إلى إسحاق بن إبراهيم، وأمره ألا يخرج الكتب من يده ولا المازيار إلا إلى يد أمير

المؤمنين، لئلا يُحتال للكتب والمازيار، ففعل إسحاق ذلك، فأوصلها من يده إلى يد المعتصم. فسأل المعتصم مازيار عن الكتب فلم يُقرّ بها. فأمر بضربه حتى مات، وذلك في أواخر سنة ٢٢٤هـ.

٥ ـ خلاف منكجور الأشروسني:

بعد أن انتهى الإفشين من بابك الخرمي، وانصرف من أذربيجان، وكانت ضمن أعماله ولّى عليها منكجور الأشروسني، وهو أحد ولاته. فأصاب منكجور في بلدة بابك الخرميّ في بعض منازله مالاً عظيماً، فاحتجزه لنفسه، ولم يعلم به الإفشين ولا المعتصم. وكان على البريد بأذربيجان رجل يقال له: عبد الله بن عبد الرحمٰن، فكتب إلى المعتصم بخبر ذلك المال، وكتب منكجور يُكذّب ذلك، فوقعت مناظرة بين منكجور وعبد الله بن عبد الرحمٰن، حتى همّ منكجور بقتل عبد الله بن عبد الرحمٰن، فاستنجد عبد الله بأهل أردبيل فمنعوه بما أراد به منكجور، وبلغ ذلك المعتصم، فأمر الإفشين أن يُوجّه رجلاً من قبله بعزل منكجور، فوجّه رجلاً من قادته في عسكرٍ ضخمٍ، فلما بلغ منكجور ذلك خلع الطاعة وجمع إليه الصعاليك، وخرج من أردبيل، فرآه القائد الموجّه إليه فقاتله فانهزم منكجور،

فسار إلى حصنٍ من حصون أذربيجان ـ التي كان بابك قد هدّمها ـ حصن في جبلٍ منيعٍ، فبناه وأصلحه، وتحصّن فيه، فلم يلبث إلا أقل من شهرٍ حتى وثب به أصحابه الذين كانوا معه في الحصن، فأسلموه ودفعوه إلى القائد الذي كان يحاربه، وهو بُغا الكبير، فقدم به إلى سامراء سنة ٢٢٥هـ، فأمر المعتصم بسجنه.

٦ ـ خروج أبي حرب المبرقع:

اعتدى أحد الجند على دار أبي حرب اليماني بفلسطين، وهو غائب عنها، وليس فيها سوى امرأةٍ حاولت منعه من النزول فضربها بسوطٍ كانت معه، فأثّر الضرب على ذراعها، وهرب الجندي غير أن المرأة قد عرفته، ولما جاء صاحب البيت أبو حرب اليماني أخبرته المرأة عن محاولة الاعتداء، فأخذ أبو حرب سيفه ومشى إلى الجندي وقتله.

هرب أبو حرب إلى جبلٍ من جبال الأردن، ووضع على وجهه برقعاً كي لا يُعرف، وطلبه السلطان فلم يعرف له خبراً. وكان أبو حرب يختفي ليلاً في كهفٍ في ذلك الجبل، أو في مكانٍ مجهولٍ، ويظهر في النهار، فمن رآه جاء إليه، فيحدّث أبو حرب صاحبه عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما يجري من

مخالفاتٍ، ويُحمّل العامل والسلطان المسؤولية. فاستجاب له أعداء ممن استمع إليه؛ فالنفس البشرية تحبّ الخير وأهله، وتكره الشرّ وتمقت أهله، وذلك بالفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأكثر من استجاب إلى أبي حربٍ الذين يعملون بحراثة الأرض من أهل تلك النواحي وأهل القرى، وذلك لأنهم هم الذين يصلون إلى سفح الجبل لحراثة تلك السفوح. وكان يزعم لأولئك الذين استجابوا له أنه أمويّ في سبيل إخفاء شخصه من ناحيةٍ، وفي سبيل إعطاء نفسه مكانةً ومهابةً، وكانوا هم يقولون عنه: هذا هو السفياني.

ولما كثر أتباع أبي حرب اليماني اتجه إلى رجال بيوتات تلك الجهات فاستجاب له جماعة من رؤساء اليمانية. ووصل الخبر إلى الخليفة المعتصم، وهو عليل، علّته التي مات بها، فبعث إليه رجاء بن أيوب الحضاريّ في زهاء ألفٍ من الجند، فلما وصل رجاء بن أيوب إلى ناحية أبي حرب اليماني وجده في عددٍ ضخمٍ من أتباعه حتى قيل: إن العدد يصل إلى مائة ألفٍ أو يزيد، فكره رجاء بن أيوب نزاله، وعسكر بالقرب منه وطاوله حتى انقضى فصل الصيف، وأقبل الخريف، فبدأت حراثة الأرض، وإعدادها للزراعة قبل موسم المطر، فانصرف

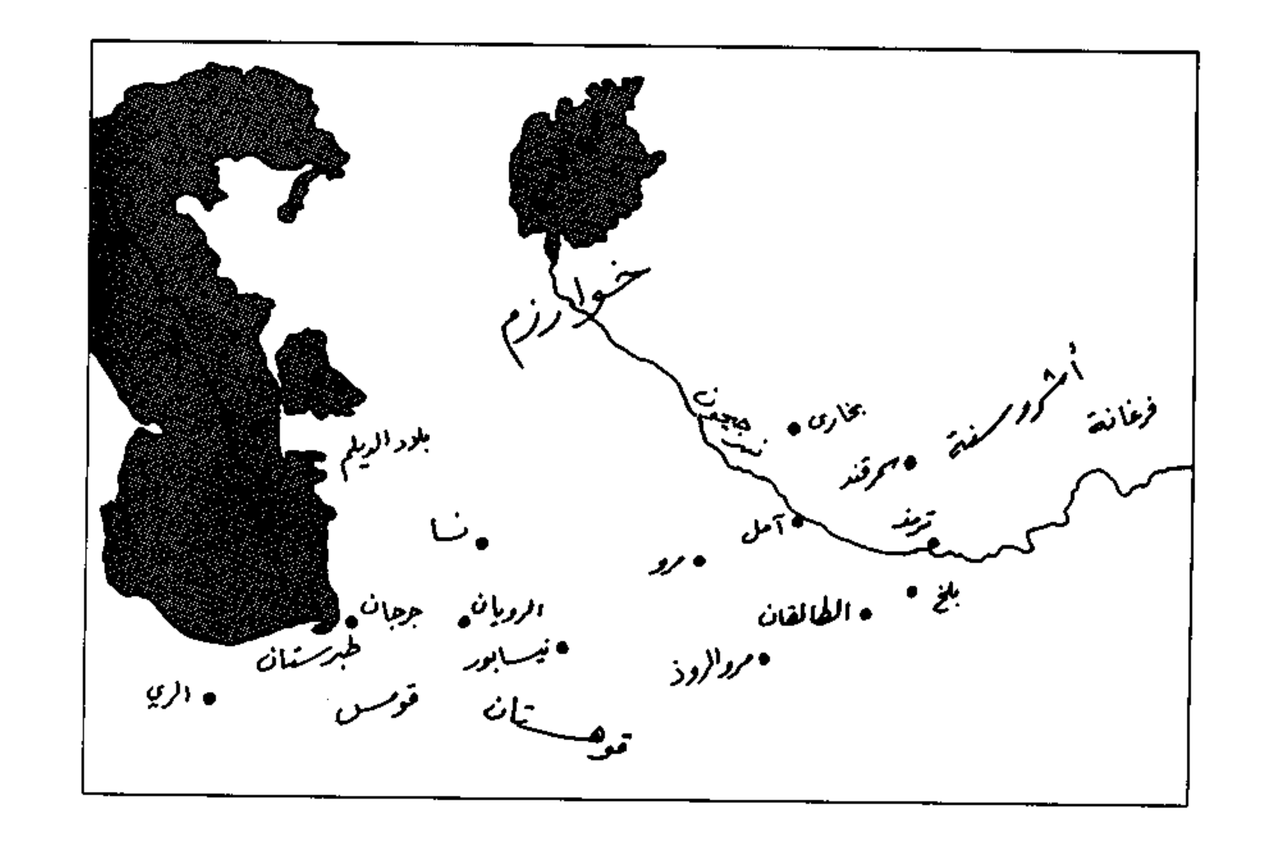
الناس لأعمالهم، واتجه أصحاب الأرض لمتابعة أشغالهم، فابتعدوا عن أبي حربٍ، وبقي حوله ألف أو ألفان، وعندها بدأ رجاء بن أيوب يناجز أبا حرب، والتقى العسكران فلما التقوا تأمّل رجاء عسكر أبي حرب المبرقع، فقال لأصحابه: ما أرى في عسكره رجلاً له فروسية غيره، وإنه سيُظهر لأصحابه من نفسه بعض ما عنده من الرجولة، فلا تعجلوا عليه. وكان الأمر كما قال رجاء، إذ لم يلبث المبرقع أن حمل على عسكر رجاءٍ، فقال رجاء لأصحابه: أفرجوا له، فأفرجوا له، حتى جاوزهم ثم كرّ راجعاً، فأمر رجاء أصحابه أن يفرجوا له، فأفرجوا له حتى جاوزهم، ورجع إلى عسكره، ثم أمهل رجاء، وقال لأصحابه: إنه سيحمل عليكم مرةً أخرى، فافرجوا له، فإذا أراد الرجوع فحولوا بينه وبين ذلك، وخذوه، ففعل المبرقع ذلك، فحمل عليه أصحاب رجاء، فأفرجوا له حتى جاوزهم، ثم كرّ راجعاً فأحاطوا به، فأخذوه وأنزلوه عن دابته.

وكان قد قدم على رجاء حين طاول في منازلة المبرقع مبعوث من قبل المعتصم يستحثّ رجاء على القتال، فأخذ رجاء المبعوث وقيّده حتى انتهى من أمر المبرقع فعندها أطلقه.

فلما قدم رجاء بالمبرقع على المعتصم عزله المعتصم على ما فعل بمبعوثه، فقال له رجاء: يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداك! وجّهتني بألفٍ على مائة ألفٍ، فكرهت أن أعاجله فأهلك ويهلك من معي، ولا تغني شيئاً، فتمهّلت حتى خفّ من معه، ووجدت فرصةً، ورأيت لحربه وجهاً وقياماً، فناهضته وقد خفّ من معه وهو في ضعفٍ، ونحن في قوّةٍ، وقد جئتك بالرجل أسيراً.

وكان خروج أبي حرب اليماني المبرقع في الرملة.

٧ ـ ظهر جعفر بن مهرجش الكردي سنة ٢٢٧هـ، فبعث إليه المعتصم في شهر المحرم القائد إيتاخ ووجّهه إلى جبال الموصل، فوثب بجعفر بعض أصحابه فقتلوه، وانتهى أمره.


خوارزم
بلاد الديلم
نسا
جرجان
طبرستان
الري
قوهستان
الرويان
نيسابور
مرو
آمل
الطالقان
مروالروذ
بلخ
ترمذ
سمرقند
بخارى
أشروسنة
فرغانة

بناء سامراء

عاش محمد المعتصم الفتنة التي وقعت بين أخويه الأمين والمأمون، وكان بعيداً عن الولوج فيها، نافراً من أحداثها وما جرى فيها، فأخذ يُحلّل الوقائع وقد تتبعها، ويدرس الرجال البارزين في مجرياتها وقد عرف أكثرهم، وكان يحاول تبرير بعض الأعمال إذ يطيش الصواب عند الفتن، ويسعى للإنصاف قدر إمكاناته حيث تكثر الأخطاء عند الخلاف، وقد استقرّ في خلده:

١" ـ أن المتلوّنين الذين تتغيّر مواقفهم حسب الأحداث، وتتبدّل مواقعهم حسب المصلحة إنما يرجع أكثرهم إلى أرومةٍ واحدةٍ، فلهم إذن هدف واحد يسعون إليه يعود لمصلحة الأرومة التي ينتمون إليها، كالعمل لإعادة إبرازها أو للعقيدة التي كان أجدادهم يتبعونها فيعملون لإحيائها بعد أن قضى عليها الإسلام، وما ذلك إلا عصبيةً لما كان عليه آباؤهم، أي كفراً ومحاربةً لله ودينه، ورِدّةً عن الإسلام، غير أنهم يُظهرون الإسلام، ويُبدون اتّباعه فلا يمكن الحكم عليهم بالكفر دون دليل

شرعيٌ، فالله أعلم بما يُبطنون، لكن يجب متابعة ما يجري، ومراقبة الرجال، والحذر من الشخصيات البارزة مهما وصلت إليه من مكانةٍ، ومهما ترقّت في مناصب الخلافة، ومهما قدّمت من خدماتٍ لدولة بني العباس.

٢" ـ أن المتلوّنين بعد إحداث الفتنة بين فريقين وإيقاع الخلاف بين جانبين ينضمّون إلى كلا الطرفين منهم إلى هذا ومنهم إلى ذاك، وكل يُشجّع ركبه، ويثير حماسته كي تبقى الفتنة مشتعلةً وتزداد التهاباً، وإذا خبت نارها قليلاً أُوقدت من جديدٍ لتحرق ما يمكنها إحراقه حتى تنهار قوة الفريقين فتضعف أمة الإسلام، وبعدها يمكن الانتصار عليها وإحياء ما اندثر وإرجاع ما زال، وإعادة شعلة النار المقدسة.

٣" ـ أن همّ المتلوّنين إضعاف الفريق القويّ من المسلمين، فهم مع الطالبيين، ثم مع العباسيين أيام قوة بني أمية، وهم ضدّ العباسيين بعد أن دعموهم وبذلوا جهدهم لهم، فلما رأوا نجاحهم وقوّتهم أرادوا تهديم ما بنوا قبل أن يشتدّ الساعد، وتثبت الأركان، وتتماسك الصفوف لذا بدأت الإساءة والتصرّفات المشينة كي ينفر الناس من القادمين الجدد، وحتى تظهر الأحقاد قبل أن

تلتئم الجراح فكان نبش القبور، وصلب الرجال بعد موتهم بدهورٍ، وإشعال الفتائل كلما تهيّأت الظروف.

وكانوا مع الطالبيين ضد العباسيين، ومع فريقٍ من العباسيين بعضهم ضد بعضٍ، وعلى الطالبيين إن تلمّسوا فيهم قوةً، وأخيراً مع المغول و. . . هكذا على مدى التاريخ.

٤" ـ أن الملتوّنين يخدمون الخلافة، ويضحّون في سبيل توسّعها، ويبذلون جهدهم من أجل توطيد دعائمها وما ذلك حباً برجالها، ولا إيماناً بدعوتها، ولا تقديراً لمبادئها ولكن للوصول إلى المكانة التي تُؤهّلهم للسير نحو الهدف الذي يسعى إليه أبناء أرومتهم في إيقاع الخلاف بين المسلمين وإحداث الفتن، ومسك الخيوط من أطرافها، وإزالة من يجب إزالته، وتثبيت من يجب تمكين وضعه، والمتابعة بدقةٍ وحذرٍ للأمور كلها. لذا نرى من المتلوّنين القادة، والوزراء، وأصحاب المكانة، ومن بيدهم القرار، وكل يُصوّب إلى مرماه، ويُوجّه إلى هدفه.

٥" ـ أن المتلوّنين قد يقع بينهم الخلاف، وهذا إما وسيلة من المخطط نفسه، وإما إسلوب للتعمية، وتغطية عن الأرومة فلا تتهم كأصلٍ للتفرقة، وإما

اختلاف في الاجتهاد للوصول إلى الهدف، غير أن هذا لا يُفسد الودّ، ولا يجرّ إلى الخلاف ما دام الهدف واحداً، فإذا اختلفت السهام أو تباينت أساليب التسديد، فإن ذلك لا يدعو إلى الخلاف ما دامت الغاية واحدة والصيد نفسه، فإن لم ينجح أسلوب نجح آخر.

٦" ـ أن الملتوّنين المتشدّدين لعقيدة أجدادهم المتعصبين لأرومتهم لم يرق لهم التباطؤ في إعلان ما يهدفون إليه، ولم يعجبهم اللجوء إلى أساليب إيقاع الخلاف وتأييد هذا الفريق ودعمه، ومخالفة ذلك وحربه، وإظهار أمر وإخفاء غيره، والتضحية بأعدادٍ من أتباعهم لاتباع أسلوب المكر والخديعة، لذا يرى هذا الفريق إعلان حقيقة ما نريد، والتشمير عن ساعد الجد والقتال، لذا ظهرت فرق الانحراف، ولكن وإن أعلنت بعض عقائد الأجداد غير أنها لم تصرح بحقيقة الهدف وإظهار الدعوة له، لذا تعددت هذه الفرق التي منها الخرّميّة وأمثالها، ونظرة بسيطة إلى أصول هذه الفرق من حيث الأرومة تُعطي إشارةً إلى الغاية المرجوة من قيامها، والهدف من تحرّكها، والقصد من قتالها.

وجد المعتصم أن المتلوّنين قد أصبحوا قوةً يحسب لها حسابها، ويُخشى بأسها، وتُشكّل خطراً

وخاصةً أنها تعود لأرومةٍ واحدةٍ، ولها أهدافها البعيدة، ويبدو من حركات الكفر والإلحاد التي تظهر على الساحة بين الآونة والأخرى، وكلها ترجع إلى أصلٍ واحدٍ، ولهذا معناه الخطير وشرّه المستطير، ولهذا فلا بدّ من العمل للوقوف أمام هذا الخطر الداهم، ومحاولة اجتثاثه من جذوره إن أمكن، ولكن ما العمل؟

رأى المعتصم أنه لا بدّ من إدخال عنصرٍ آخر غير عنصر المتلوّنين إلى القيادات للحدّ من نشاط العنصر السابق، وإيجاد قوةٍ تستطيع الوقوف في وجه القوة السابقة، وتحول دون تنفيذ مخططاتٍ خبيثةٍ فيما إذا أقدمت عليها جماعة مهما كان انتماؤها، ولكن أيّ عنصرٍ هذا الذي يمكن التركيز عليه، أو إبرازه أو الاعتماد عليه عند المعمعة فيما إذا وقعت؟

إن أول العناصر التي يمكن أن تتجه نحوها الأنظار أول ما تتجه هم العرب لكثرتهم ومكانتهم وبعض ميّزاتهم، ويجب ألا ننسى أنهم هم الذين حملوا دعوة الإسلام في أول عهدها، وجاهدوا في سبيل الله لنشرها، وعملوا على إيصالها إلى بقية الشعوب، وأن القرآن قد نزل بلغتهم، لذا فقد سادت، كما دُوِّنت علوم الإسلام بها، ورسول الله ﷺ، صاحب الدعوة، ونبيّ

هذه الأمة، إنما هو منهم، ولهذا دوره، كما أن له الأثر الكبير في ذلك. غير أن العرب قلّ منهم من يتخذ القتال مهنةً وذلك لما أنعم الله عليهم من غنائم وفيءٍ في الفتوحات التي تمّت في صدر الإسلام والفتوحات الأخرى التي تلتها أيام العهد الأموي، فكانوا في رغدٍ من العيش فليسوا بحاجةٍ إلى ما يدفعهم إلى اتخاذ القتال مهنةً، ولكن إن حدث نفيرٍ نفروا، وإن دُعوا إلى الجهاد لبّوا، وكانوا طلائع المجاهدين، وفي مقدمة الصفوف وإن كانوا يتبعون إلى أولئك القادة الذين اتخذوا القتال مهنةً. كما أن نفوسهم أصبحت لا تتوق إلى مهنة القتال لانصراف بعضهم إلى شؤون أملاكهم، واعتبار بعضهم أن لهم شؤون الخلافة وحسن التدبير وأمر التوجيه، وقد فات هؤلاء أن هذه الأمور من أول مهمات قادة الحرب. وفعلاً فقد أصبح أكثر قادة المقاتلين ليسوا من العرب الذي احتجبوا وراء المماليك والجواري، وفي الأرض والبراري، وفي القصور عند السواري.

ولكن يمكن أخذ بعض القادة العرب بالتشجيع وإعطاء بعض الصلاحيات، والإقناع بضرورة الحفاظ على الخلافة، والتعريف بالوضع القائم غير أن الاقتصار

على القادة العرب يُثير الشعوب الأخرى، وتفرّخ فكرة الشعوبية، وفي الواقع فقد بدأت تظهر من خلال ما يبثّه المتعصّبون من المتلوّنين، وربما يبتعد الأمر عن الفكر الإسلامي إن لم يُحتط للأمر، وتكون هناك ضوابط سليمة، فالإسلام لا يُفرّق بين أبنائه حسب شعوبهم، فالمؤمنون إخوة، لا فضل لعربيٍ على أعجميٍ ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى. في أيام الراشدين لم يكن قادة من غير العرب لأنه لم تكن شعوب من غير العرب قد دخلت في الإسلام بعد، ووصلت أفراد منها إلى مستوى القيادة، وكذا الأمر في العهد الأموي لم يتولّ القيادة أحد من غير العرب وذلك لأن القائد في القتال هو إمام جنده بالصلاة، وهو خطيبهم في الجمعة والأعياد، وهو المرجع إليهم والقاضي بينهم، لذا يجب أن يكون على علمٍ بالإسلام ومعرفةٍ بالأحكام، ولم يكن بين الشعوب من غير العرب التي دخلت بالإسلام من وصل إلى هذا المستوى الذي يؤمّ به الجند ويخطب بهم وفيهم من الصحابة وأبنائهم ومن التابعين ومن أهل العلم، وهذا أمر طبيعي وتصرّف سليم، ومع ذلك فقد تكلّم الشعوبيون وأصحاب العصبيات عن الأمويين ووجّهوا لهم النقد ظلماً وعصبيةً وتناقل ذلك الحاقدون والجاهلون من غير معرفةٍ ودون علمٍ حتى شاع أن

الأمويين أصحاب عصبيةٍ للعرب.

أما في العهد العباسي فقد أصبح للشعوب التي اعتنقت الإسلام من غير العرب باع طويلة بالعلم، ومكانة مرموقة بالدين، فلا بد من أن يأخذوا دورهم بجميع جوانب الحياة ومنها القيادة، وقد نالوا ذلك، وخاصةً الفرس إذ سبقوا بقية الشعوب بعد العرب إلى الإسلام، ولعدة أسبابٍ، ولظروفٍ سياسيةٍ وقعت طغت قيادات هذا الشعب، وكان منهم الصالح لا شكّ، وكان منهم دون ذلك، وكانت الأحداث التي جرت على الساحة في هذا العهد والتي تحدّثنا ونتحدّث عنها. وكان لا بُدّ من العمل على توازن القوى، والسير بحكمةٍ خوفاً من السير بطرقٍ غير مستقيمةٍ.

رأى المعتصم التوجّه إلى الشعب الثالث الذي دخلت منه أعداد غير قليلةٍ بالإسلام، وهو الشعب التركي، فأوضاع أبنائه تدفعهم إلى اتخاذ الجندية مهنةً، وهم من شعبٍ لم تُرَقّله المدنيّة بعد، ولم تفْقِدْهُ خصائصه في الشجاعة، ولم تُبْعِدْهُ عن الطاعة فيمكن الإفادة منه، ودخول ساحات القتال والمعامع بأبنائه.

ثبت رأي المعتصم على استخدام عناصر من الشعب التركي في القتال فأرسل إلى سمرقند وبلاد ما

وراء النهر والصغد وفرغانة من يستقدم عناصر من هناك منهم قد وقع الاختيار عليهم، ومنهم من جُلب شراءً كموالي ومماليك، ومنهم أجراء. وقدموا بهم إلى المعتصم، فأسكنهم بغداد، وعددهم ليس بالقليل.

سبّب هؤلاء الأتراك القادمون إلى بغداد مشكلةً، ذلك أن بعضهم كان لا يجيد ركوب الخيل، فأخذ يمتطي الخيل، ويسرع في دروب بغداد، فيؤذون السكان، إذ يطأ بعضهم الصبيّ، أو يصدم الشيخ العاجز أو المرأة، فيتشاجرون مع الناس، وقد يُقتل بعضهم، ويغضب الآخرون إذ يُعطون أنفسهم مكانةً كبيرةً، إذ هم رجال الخليفة، فشكا الأتراك ذلك إلى المعتصم، وتأذّت بهم العامة. وقد ذُكر أن المعتصم كان منصرفاً من المصلى في يوم عيدٍ، فلما صار في مربّعة الحرشيّ، نظر إلى شيخٍ قد قام إليه، فقال له: يا أبا إسحاق، فابتدره الجند ليضربوه، فأشار إليهم المعتصم فكفّهم عنه، فقال للشيخ: مالك؟ قال: لا جزاك الله عن الجوار خيراً! جاورتنا وجئتنا بهؤلاء العلوج فأسكنتهم بين أظهرنا، فأيتمت بهم صبياننا، وأرملت بهم نسواننا، وقتلت بهم رجالنا! والمعتصم يسمع ذلك كله، ثم دخل داره فلم يُر راكباً إلى السنة القابلة في

مثل ذلك اليوم، فلما كان العام المقبل في مثل ذلك اليوم خرج فصلّى بالناس العيد، ثم لم يرجع إلى منزله ببغداد، ولكنه صرف وجه دابته إلى ناحية القاطول[1]، وخرج من بغداد ولم يرجع إليها.

وكان المعتصم قد بعث وزيره أحمد بن خالد لشراء أرض يبني بها مدينةً، وقال له: يا أحمد، اشترِ لي بناحية سامرّا[2] موضعاً أبني فيه مدينةً، فإني أتخوّف

---

(١) القاطول: من القطل وهو القطع، والقطيل: المقطول أي المقطوع: اسم نهر كأنه مقطوع من نهر دجلة، وكان في موضع سامرا قبل أن تعمّر، وكان الرشيد أول من حفر هذا النهر، وبنى على بدايته قصراً سمّاه «أبا الجند» لكثرة ما كان يسقي من الأرضين، وجعله لأرزاق جنده، وبنى عليه بناءً بسامرا دفعه إلى أشناس التركي مولاه، ونقل إليها الناس. وفوق هذا القاطول القاطول الكسروي الذي حفره كسرى أنوشروان، ويأخذ من دجلة في الجانب الشرقي، ويسقي منطقة، وعليه «شاذروان»، وبعد ذلك حفر الرشيد هذا القاطول.

وقال البحتري يرثي المتوكل:

محلّ على القاطول أخلق داثره وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره

(٢) سامراء: مدينة على نهر دجلة إلى الشمال من بغداد وعلى بعد مائة كيلومتر منها، وقيل: إنها مدينة قديمة، ومنها يمرّ سام بن نوح، وتعني «سام راه» طريق سام. وقيل: إنها مدينة قديمة من مدن الفرس، وتحمل إليها الأتاوة التي لملك الفرس على ملك الروم، وتعني «سا» الأتاوة، و«مُرّه» اسم العدد، والمعنى =

أن يصيح هؤلاء الحربية صيحةً، فيقتلوا غلماني، حتى أكون فوقهم، فإن رابني منهم ريب أتيتهم في البر والبحر، حتى آتي عليهم، وقال له: خذ مائة ألف دينارٍ، فقال: آخذ خمسة آلاف دينارٍ، فكلما احتجت إلى زيادةٍ بعثت إليك فاستزدت؟ قال: نعم. فأتيت الموضع، فاشتريت سامرًا بخمسمائة درهم من النصارى أصحاب الدير، واشتريت موضع البستان الخاقاني بخمسة آلاف درهم، واشتريت عدة مواضع حتى أحكمت ما أردت، ثم انحدرت فأتيته بالصكاك فعزم على الخروج إليها في سنة عشرين ومائتين، فخرج حتى إذا قارب القاطول، ضربت له فيه القباب والمضارب،

= مكان قبض أتاوة الروم. وقيل: إن سام بن نوح بناها، ودعا أن لا يصيب أهلها سوء. وأراد أبو العباس بناءها فبنى الأنبار، وأراد أبو جعفر بناءها بعد أن أسس بغداد، وذلك عندما سمع بركة هذه المدينة فابتدأ بالبناء في البردان، ثم بدا له وبنى بغداد، وأراد الرشيد أيضاً بناءها فبنى قصراً بالقرب من أثرٍ قديمٍ للأكاسرة، ثم بناها المعتصم. وقيل: إنه لما كمل بناؤها سميت «سرور من رأى» ثم اختصرت، فقيل: «سُرّ من رأى»، فلما خربت سميت «ساء من رأى». ثم ترك المعتضد بالله (٢٧٩ ـ ٢٨٩) سامراء، ورجع إلى بغداد، فكانت سامراء عاصمة الخلافة ما يقرب من خمسٍ وستين سنةً.

وضرب الناس الأخبية، ثم لم يزل يتقدّم، وتُضرب له القباب حتى وضع البناء بسامرّا في سنة إحدى وعشرين ومائتين.

وقال مسرور الخادم الكبير: سألني المعتصم أين كان الرشيد يتنزه إذا ضجر من المقام ببغداد؟ فقلت له: بالقاطول، وقد كان بنى هناك مدينةً آثارها وسورها قائم. وقد كان خاف من الجند ما خاف المعتصم، فلما وثب أهل الشام بالشام وعصوا، خرج الرشيد إلى الرقة فأقام بها، وبقيت مدينة القاطول لم تستتمّ.

ولما خرج المعتصم إلى القاطول استخلف ببغداد ابنه هارون الواثق.

بعد أن أخذ الأتراك يصلون إلى بغداد أحسّ المتلوّنون بالمخطط فبدأت الشائعات تظهر، والأراجيف تنطلق، ومنها أن المعتصم قد طغت عليه العصبية فجدته أم أمه تعود إلى أصلٍ تركي لذا أحبّ أن يُكثر من الجند الأتراك، والقصد من ذلك إثارة الجند من الشعوب الأخرى للوقوف أمام هذا التصرّف، ومن ثم ساعد هذا سوء تصرّف بعض هؤلاء القادمين فأصاب أذاهم كثيراً من السكان مما زاد على العمل للوقوف في وجههم، وكلّم بعضهم الخليفة المعتصم نفسه.

ونتيجة هذا كله فقد ظهرت العصبيات، وقيل: إن المعتصم يتعصّب لشعب أمه (جدته)، وشاعت هذه الفكرة، وردّدها الناس، وتناقلتها الألسن، وتتردّد مع الزمن، ودوّنها الإخباريون، واستمرت حتى يومنا هذا.

والواقع أن المعتصم اضطر إلى هذا اضطراراً، ولم تكن فكرة العصبية لقوم جدته في الحسبان لكن وجد فتن المتلوّنين وحركاتهم ضد الإسلام كالخرميّة وغيرها، وأدرك بعض أهدافهم البعيدة من خلال تصرّفاتهم، ولم يجد شعباً يدخل أفراده بالحربية يومذاك سوى الترك، فأقدم على ذلك، غير أن العصبية وانتماء والدة أمه إلى الترك الذي جاء عرضاً فساعد على إشاعة هذه الفكرة وبقيت شائعةً بل غدت سائدةً، بل أصبحت حقيقةً بعد أن سجّلتها الكتب، وتناقلتها الأجيال، فصارت الكتب مرجعاً، وصارت الفكرة بدهيةً تُقال في معرض كل حديثٍ، وتروى في مجال كل بحثٍ، ويرجع سبب هذا كله إلى المتلوّنين الذين كان لهم دور في إشاعتها، ودسّها كروايةٍ عند الذين يدوّنون، ويذكرون لها سنداً، وإن لم يتوانوا هم في التسجيل، ولم يهملوا هذا الجانب فزجّوا الكثير مما يريدون، ومما يخدم الهدف الذي يسعون إليه كنوعٍ من المخطط.

وإثارة العصبيات يستفيد منها المتلوّنون إذ تأخذ العاطفة العصبية المسلمين الذين يلتقون مع المتلوّنين بأرومةٍ واحدةٍ ولم يعرفوا محاربة الإسلام للعصبية فيعطفون عليهم، وقد يتجاوبون معهم في بعض المواقف، وبذا يكون المتلونون قد حصلوا على تأييد، واستفادوا دعماً. ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن إثارة العصبية تفكّك المجتمع، ويقع الصراع بين شعوب الأمة الواحدة، فيحدث الخلاف والانقسام فتضعف الأمة، وهذا ما يسعى إليه المتلوّنون بل هو هدفهم الرئيسي.

مقتل العباس بن المأمون

سبق أن ذكرنا أن بعضهم قد سعى في بيعة العباس بن المأمون وإبعاد عمّه المعتصم عن الخلافة، وقد شغب الجند، وطلبوا العباس، ونادوه باسم الخلافة، فبعث المعتصم إلى العباس فأحضره، فبايعه ثم خرج إلى الجند، فقال: ما هذا الحب البارد! قد بايعت عمي، وسلّمت الخلافة إليه، فسكن الجند، واستقرّت الأوضاع، ومشت أمور الخلافة بشكلٍ جيدٍ.

وخرج المعتصم إلى عمورية، وخرج معه ابن أخيه العباس بن المأمون، وكان المعتصم قد وجّه إلى بلاد الروم أيضاً عجيف بن عنبسة، ولكن لم يطلق يده في النفقات كما أطلق يد الإفشين، كما أن المعتصم قد استقصر أمر عجيف وأفعاله، واستبان ذلك لعجيف، ولكن لم يكن له مجال للكلام أو للقيام بردّ فعلٍ، ولم يجد وسيلةً سوى التوجّه إلى العباس بن المأمون فأخذ يلومه على ما سبق أن صدر منه من فعلٍ عند وفاة المأمون حين بايع عمه المعتصم، وما فرّط فيما فعل،

وأخذ يُشجّعه ليتلافى ما كان منه، وما زال به حتى أجابه إلى الفتك بعمه، وأخذ له البيعة من الأمراء، وجهّز رجلاً يقال له: الحارث السمرقندي، وكان نديماً للعباس، والعباس يأنس به، وكان الحارث رجلاً أديباً له عقل ومداراة، فصيّره العباس رسوله وسفيره إلى القواد، فكان يدور في العسكر حتى تألّف له جماعةً من القواد، وبايعوه وبايعه منهم خواصّ، وسمّى لكل رجلٍ من قادة المعتصم رجلاً من ثقاة أصحابه ممن بايعه، ووكّله بذلك، وقال: إذا أُمرنا بذلك، فليثب كل رجلٍ منكم على من ضمنّاه أن يقتله، فضمنوا له ذلك، فكان يقول للرجل ممن بايعه: عليك يا فلان أن تقتل فلاناً، فيقول: نعم، فوكّل من بايعه من خاصّة المعتصم بالمعتصم، ومن خاصّة الإفشين بالإفشين، ومن خاصّة أشناس بأشناس ممن بايعه من الأتراك، فضمنوا ذلك جميعاً، فلما أرادوا أن يدخلوا الدرب وهم يريدون أنقرة وعمورية، ودخل الإفشين من ناحية ملاطية، أشار عُجيف على العباس أن يثب على المعتصم في الدرب وهو في قلّةٍ من الناس، وقد تقطّعت عنه العساكر، فيقتله ويرجع إلى بغداد، فالناس يفرحون بانصرافهم من الغزو، فأبى العباس عليه، وقال: لا أفسد هذه الغزاة، حتى دخلوا بلاد الروم، وفتحوا عمورية، فقال عُجيف

للعباس: يا نائم كم تنام! قد فُتحت عمورية، والرجل ممكن، دُسّ قوماً ينبهون الحارث، فأبى عليه العباس، وقال: أنتظر حتى يصير إلى الدرب، فيخلو كما خلا في بداية دخول بلاد الروم، فهو أمكن منه هاهنا، وكان عُجيف قد أمر من ينتهب المتاع، فانتهب بعض المتاع في عسكر إيتاخ.

ركب المعتصم ورجع، وسكن الناس، ولم يُطلق العباس أحداً من أولئك الرجال الذين كان واعدهم، فلم يُحدثوا شيئاً، وكرهوا أن يفعلوا شيئاً بغير أمره. ولما رجعوا فطن المعتصم بالخبر، فأمر بالاحتفاظ وقوة الحرس، وأخذ بالحزم، واجتهد بالعزم، واستدعى الحارث السمرقندي فاستقرّه، فأقرّ له بجملة الأمر، وأخذ البيعة للعباس بن المأمون من جماعة من الأمراء أسماهم له، فاستكثرهم المعتصم، واستدعى ابن أخيه العباس بن المأمون، فقيّده، وغضب عليه وأهانه، ثم أظهر له أنه قد رضي عنه، وعفا عنه، وفكّ قيده، وأطلق سراحه.

فلما كان الليل عاد فاستدعاه إلى حضرته، واستخلى بعد أن أجهده، واستحكاه عن الذي كان قد دبّره من الأمر، فشرح له القضية وذكر له القصة من دون

وعـيٍ ولا انـتـبـاهٍ، فـإذا الأمـر كـمـا ذكـر الـحـارث السمرقندي. فلما أصبح استدعى الحارث، وانفرد به، وسأله عن القضية ثانياً فذكرها له كما ذكرها أول مرةٍ، فقال: ويحك إني كنت حريصاً على ذلك[1] فلم أجد إلى ذلك سبيلاً بصدقك إياي في هذه القصة. ثم أمر المعتصم بابن أخيه العباس بن المأمون، فقُيّد وسُلّم إلى الإفشين، وأمر بعُجيف وبقية الأمراء الذين ذكرهم فاحتفظ عليهم، ثم أخذهم بأنواع العقوبات، وقُتلوا، ومات العباس بن المأمون بمنبج جوعاً وظمأً، كما قتل جماعةً من ولد المأمون[2].

وقُتل من القادة عُجيف بن عنبسة، وأحمد بن الخليل، والشاه بن سهل، وعمرو الفرغاني.

---

(١) أي كنت حريصاً على سفك دمك بأن تكذب عليَّ، فلم تفعل، فقد أفلتَ، فقال الحارث: يا أمير المؤمنين، لست بصاحب كذب.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير.

مقتل الإفشين

وصل الإفشين حيدر بن كاوس إلى مرتبةٍ كبيرةٍ في القيادة وخاصةً بعد تمكّنه من الانتصار على بابك الخرميّ، والقبض عليه، وحمله إلى المعتصم، فأصبح الرجل الثاني في الخلافة بعد المعتصم، ولكن يبدو أن ما قدّمه للدولة كان يهدف إلى أمرٍ ثانٍ إذ لم يكن عمله خالصاً لله، ويظهر أنه كان يرغب في إنقاذ بابك من القتل فيما لو سار إليه غيره من القادة، وكان يرغب في ولاية خراسان، ويرى فيها القاعدة التي يمكن أن يحقّق فيها هدفه البعيد الذي يسعى إليه، وفي الوقت نفسه يرى أن آل طاهر لم يستفيدوا من وضعهم، ولا من خراسان كمركزٍ مهمٍ لهم، إضافةً إلى أنهم لم يخدموا أهل هذه المنطقة، لذا كان يطمع في هذه الولاية، ولو كان في ذلك منافسة لآل طاهر ما داموا قد قصروا في واجبهم.

لما كان الإفشين في أذربيجان يُقاتل بابك الخرميّ، لم تكن تأتيه هدية من أرمينية، ولم يحصل

على غنمٍ أو ينال كسباً إلا وجّه ذلك إلى أشروسنة[1] مروراً بالمنطقة التي تتبع عبد الله بن طاهر فكان عبد الله بن طاهر يكتب إلى المعتصم بخبر ذلك. فكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر، يأمره بتعريفه جميع ما يوجّه به الإفشين من الهدايا إلى أشروسنة، ففعل عبد الله بذلك. وكان الإفشين كلما تهيّأ عنده مال حمّله أوساط أصحابه من الدنانير بقدر طاقتهم، كان الرجل يحمل من الألف فما فوقه من الدنانير في وسطه، فأخبر عبد الله بذلك، فبينا هو في يومٍ من الأيام، وقد نزل رسل الإفشين نيسابور ومعهم الهدايا وجّه إليهم عبد الله بن طاهر من أخذهم ففتشهم، فوجد في أوساطهم المال، فأخذها منهم، وقال لهم: من أين لكم هذا المال؟ فقالوا: هذه هدايا الإفشين، وهذه أمواله. فقال: كذبتم لو أراد أخي الإفشين أن يرسل بمثل هذه الأموال لكتب إليّ يعلمني ذلك لآمر بحراسته وخفارته، لأن هذا مال

(١) أشروسنة: من منطقة ما وراء النهر، من بلاد الهياطلة، بين نهر سيحون وسمرقند، بينها وبين سمرقند مائة وثلاثون كيلومتراً، وأشروسنة اسم الإقليم، كما أن الصغد اسم الإقليم، والغالب عليها الجبال، وهي بين الشاش شمالاً، وفرغانة شرقاً، وسمرقند غرباً.

عظيم، وإنما أنتم لصوص. فأخذ عبد الله بن طاهر المال، وأعطاه الجند قِبله، وكتب إلى الإفشين يذكر له ما قال القوم، وقال: أنا أنكر أن تكون أنت وجّهت بمثل هذا المال إلى أشروسنة، ولم تكتب إليَّ تُعلمني لأحرسه، فإن كان هذا المال ليس لك فقد أعطيته الجند مكان المال الذي يُوجّهه إليّ أمير المؤمنين في كل سنةٍ، وإن كان المال لك ـ كما زعم القوم ـ فإذا جاء المال من قبل أمير المؤمنين رددته إليك، وإن يكن غير ذلك فأمير المؤمنين أحق بهذا المال، وإنما دفعته إلى الجند لأني أريد أن أوجّههم إلى بلاد الترك.

فكتب إليه الإفشين أن ماله ومال أمير المؤمنين واحد، ويسأله إطلاق القوم ليمضوا إلى أشروسنة، فأطلقهم عبد الله بن طاهر، فمضوا، فكان ذلك سبب الوحشة بين عبد الله بن طاهر وبين الإفشين.

ثم جعل عبد الله بن طاهر يتتبع عليه، وكان الإفشين يسمع من المعتصم أحياناً كلاماً يدلّ على أنه يريد أن يعزل آل طاهر عن خراسان فطمع الإفشين في ولايتها، فجعل يكاتب مازيار، ويبعثه على الخلاف، ويضمن له القيام بالدفع عنه عند السلطان، ظنّاً منه أن مازيار إن خالف احتاج المعتصم إلى من يُوجّهه

لمحاربته، ويعزل عبد الله بن طاهر، ويوليه خراسان مكانه.

وأظهر مازيار الخلاف ولكن المعتصم لم يعزل عبد الله بن طاهر عن خراسان، ولم يُعطها للأفشين بل وجه المعتصم جيشاً لقتال مازيار كما وجه عبد الله بن طاهر جيشاً للغرض نفسه، وقُبض على مازيار أسيراً، وأقرّ بالكتب التي بعثها الإفشين، وأُخذت وبعثت مع مازيار إلى المعتصم، وقتل المعتصم مازيار، واطلع على كتب الإفشين، فأخذ المعتصم يحذر الإفشين، ويهيئ له ما يُنهي وضعه.

وبعد أن انتصر الإفشين على بابك الخرميّ ولّى منكجور الأشروسني على أذربيجان وهو من ولاته وابن بلده وذلك رغبةً في توسعة النفوذ وامتداد السيطرة، غير أن منكجور قد أصاب في بعض منازل بابك مالاً عظيماً واحتجزه لنفسه دون أن يعلم به الإفشين ولا المعتصم، لكن بلغ ذلك المعتصم، فأمر الإفشين أن يعزل منكجور فعزله، فلما بلغ ذلك منكجور خلع الطاعة، وأعلن العصيان، غير أن جنده الذين كانوا معه في الحصن قد وثبوا عليه، وقبضوا عليه، ودفعوه إلى قائد المعتصم بغا الكبير. وانتهى أمره، وقد اتّهم الإفشين في أمره.

تغيّر المعتصم بعد هذا للإفشين، وأحسّ الإفشين بذلك، وعلم تغيّر حاله عنده، فلم يدر ما يصنع، فعزم على الفرار إلى أرمينية التي هي ولاية له يتولّى أمرها، ومنها سينتقل إلى بلاد الخزر، وذلك في يوم يكون فيه المعتصم وقواده في شغلٍ، فصعُب ذلك عليه، فهيّأ سمّاً كثيراً، وقرّر أن يعمل طعاماً ويدعو المعتصم وقواده فيسقيهم، فإن لم يجبه المعتصم استأذنه في قواد الأتراك، مثل أشناس وإيتاخ وغيرهم في يوم يكون المعتصم فيه مشغولاً، فإذا صاروا إليه أطعمهم وسقاهم وسمّهم، فإذا انصرفوا من عنده خرج من أول الليل، ويتجه نحو بلاد أرمينية، ثم يصير هو إلى بلاد الخزر مستأمناً، ثم يسير من بلاد الخزر إلى بلاد الترك، ويرجع من بلاد الترك إلى بلاد أشروسنة، ثم يستميل الخزر على أهل الإسلام، فكان في تهيئة ذلك، وطال به الأمر فلم يمكنه ذلك.

وكان قواد الإفشين يتناوبون في دار أمير المؤمنين كما يتناوب بقية القواد، فكان واجن الأشروسني قد جرى بينه وبين من قد اطّلع على أمر الإفشين حديث، فذكر له واجن أن هذا الأمر لا أراه يمكن ولا يتمّ، فذهب ذلك الرجل الذي سمع قول واجن، فحكاه

للإفشين، وسمع بعض من يميل إلى واجن من خدم الإفشين وخاصته ما قال الإفشين في واجن، فلما انصرف واجن من النوبة في بعض الليل أتاه فأخبره أنه قد أُلقي ذلك إلى الإفشين، فحذّر واجن على نفسه، فركب من ساعته في جوف الليل حتى أتى دار أمير المؤمنين، وقد نام المعتصم، فصار إلى إيتاخ، فقال: إن لأمير المؤمنين عندي نصيحة، فقال له إيتاخ: أليس الساعة كنت هاهنا! قد نام أمير المؤمنين، فقال له واجن: لا يمكنني أن أصبر إلى غدٍ، فدقّ إيتاخ الباب على بعض من يُعلم المعتصم بالذي قال واجن، فقال المعتصم: قل له ينصرف الليلة إلى منزله، ويُبكّر عليّ في غدٍ، فقال واجن: إن انصرفت الليلة ذهبت نفسي، فأرسل المعتصم إلى إيتاخ: بيّته الليلة عندك، فبيّته إيتاخ عنده، فلما أصبح بكّر به مع صلاة الغداة، فأوصله إلى المعتصم، فأخبره بجميع ما كان عنده، فدعا المعتصم إليه محمد بن حماد بن دَنْقَش الكاتب، فوجّهه يدعو الإفشين، فجاء الإفشين في سواد، فأمر المعتصم بأخذ سواده، وحبسه.

وكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر في الاحتيال للحسن بن الإفشين ـ وكان الحسن قد كثرت

كتبه إلى عبد الله بن طاهر في نوح بن أسد ـ يعلمه تحامله على ضياعه وناحيته. فكتب عبد الله بن طاهر إلى نوح بن أسد يعلمه ما كتب به أمير المؤمنين في أمره، ويأمره بجمع أصحابه والتأهّب له، فإذا قدم عليه الحسن بن الإفشين بكتاب ولايته استوثق منه واحمله إليّ. فكتب عبد الله بن طاهر إلى الحسن بن الإفشين يعلمه أنه عزل نوح بن أسدٍ، وأنه قد ولّاه الناحية، ووجّه إليه بكتاب عزل نوح بن أسدٍ.

فخرج الحسن بن الإفشين في قلّة من أصحابه وسلاحه حتى ورد على نوح بن أسدٍ، وهو يظنّ أنه والي الناحية، فأخذه نوح بن أسد وشدّه وثاقاً، ووجّه به إلى عبد الله بن طاهر، فوجّه به عبد الله إلى المعتصم بسامراء، ووجّه زوجته معه أترنجة بنت أشناس، وأودع هناك الحسن بن الأفشين السجن.

دعا المعتصم الإفشين إلى داره، ولم يكن بعد قد وُضع في السجن مشدّداً عليه، وأحضر قوم من الوجوه لتبكيت الإفشين بما هو عليه، ولم يترك في الدار أحداً من أصحاب المراتب إلا من كان من ولد أبي جعفر المنصور، وصُرف بقية الناس.

وكان المناظر للإفشين محمد بن عبد الملك

الزيّات[1]، وكان الذين أُحضروا أيضاً: المازيار صاحب طبرستان، والموبذ، والمرزبان بن تركش - وهو أحد ملوك الصغد - ورجلان من أهل الصغد. فدعا محمد بن عبد الملك بالرجلين، وعليهما ثياب رثّه، فقال لهما محمد بن عبد الملك: ما شأنكما؟ فكشفا عن ظهورهما وهي عارية من اللحم، فقال له محمد: تعرف هذين؟ قال: نعم، هذا مُؤذّن، وهذا إمام، بنيا مسجداً بأشروسنة، فضربت كل واحدٍ منهما ألف سوطٍ، وذلك أن بيني وبين ملوك الصغد عهداً وشرطاً، أن أترك كل قومٍ على دينهم وما هم عليه، فوثب هذان على بيتٍ كان فيه أصنامهم - يعني أهل أشروسنة - فأخرجا الأصنام، واتخذاه مسجداً، فضربتهما على هذا ألفاً ألفاً لتعدّيهما، ومنعهما القوم من بيت أصنامهم.

---

(١) محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة، أبو جعفر، المعروف بـ«ابن الزيات»: ولد سنة ١٧٣هـ، وزير المعتصم والواثق، وعالم باللغة والأدب، من بلغاء الكتاب والشعراء، نشأ في بيت تجارة في بلده قرب بغداد، ونبغ، فتقدّم حتى بلغ رتبة الوزارة، وعوّل عليه المعتصم في أمور دولته، وكذلك ابنه الواثق، ولما مرض الواثق عمل ابن الزيات على تولية ابن الواثق وحرمان المتوكل، فلم يُفلح، وولي المتوكل، فنكبه، وعذبه إلى أن مات ببغداد سنة ٢٣٣هـ.

كان من العقلاء الدهاة، وفي سيرته قوة وحزم، وله ديوان شعر.

فقال له محمد: ما كتاب عندك قد زيّنته بالذهب والجواهر والديباج، فيه الكفر بالله؟ قال: هذا كتاب ورثته عن أبي، فيه أدب من آداب العجم، وما ذكرت من الكفر، فكنت أستمتع منه بالأدب، وأترك ما سوى ذلك، ووجدته مُحَلّى، فلم تضطرني الحاجة إلى أخذ الحلية منه، فتركته على حاله، ككتاب كليلة ودمنة وكتاب مزدك في منزلك، فما ظننت هذا يُخرج من الإسلام.

ثم تقدّم الموبذ، فقال: إن هذا كان يأكل المخنوقة، ويحملني على أكلها، ويزعم أنها أرطب لحماً من المذبوحة، وكان يقتل شاةً سوداء كل يوم أربعاء، يضرب وسطها بالسيف يمشي بين نصفيها ويأكل لحمها، وقال لي يوماً: إني قد دخلت لهؤلاء القوم في كل شيء أكرهه، حتى أكلت لهم الزيت، وركبت الجمل، ولبست النعل غير أني إلى هذه الغاية لم تسقط عني شعره ـ يعني لم يأخذ شعرةً من شعر العانة ـ ولم يختتن.

فقال الإفشين: خبروني عن هذا الذي يتكلم بهذا الكلام، ثقة هو في دينه؟ ـ وكان الموبذ مجوسياً أسلم فيما بعد على يد المتوكل ونادمه ـ قالوا: لا، قال: فما معنى قبولكم شهادة من لا تثقون به ولا تعدّلونه! ثم أقبل على الموبذ فقال: هل كان بين منزلي ومنزلك باب

أو كوة تطّلع عليّ منها وتعرف أخباري منها؟ قال: لا، قال: أفليس كنت أُدخلك إليَّ وأبثّك سرّي وأُخبرك بالأعجمية وميلي إليها وإلى أهلها؟ قال: نعم، قال: فلست بالثقة في دينك ولا بالكريم في عهدك، إذا أفشيت عليَّ سرّاً أسررته إليك.

ثم تنحّى الموبذ، وتقدّم المرزبان بن تركش، فقالوا للإفشين: هل تعرف هذا؟ قال: لا، فقيل للمرزبان: هل تعرف هذا؟ قال: نعم هذا الإفشين، قالوا له: هذا المرزبان، فقال له المرزبان: يا ممخرق، كم تُدافع وتُموّه! فقال له الإفشين: يا طويل اللحية، ما تقول؟ قال: يكيف يكتب إليك أهل مملكتك؟ قال: كما كانوا يكتبون إلى أبي وجدي. قال: فقل، قال: لا أقول، فقال المرزبان: أليس يكتبون إليك بكذا وكذا بالأشروسنية؟ قال: بلى، قال: أليس تفسيره بالعربية: (إلى إله الآلهة من عبده فلان بن فلان؟ قال: بلى! قال محمد بن عبد الملك: والمسلمون يحتملون أن يقال لهم هذا! فما أبقيت لفرعون حين قال لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1]. قال: كانت هذه عادة القوم لأبي وجدي، ولي قبل أن أدخل

(١) سورة النازعات: الآية ٢٤.

في الإسلام، فكرهت أن أضع نفسي دونهم فتفسد عليّ طاعتهم. فقال له إسحاق بن إبراهيم بن مصعب: ويحك يا حيدر، كيف تحلف بالله لنا فنصدقك، ونصدق يمينك، ونجريك مجرى المسلمين، وأنت تدّعي ما ادّعى فرعون! فقال: يا أبا الحسين، هذه سورة قرأها عُجيف على علي بن هشام، وأنت تقرؤها عليّ، فانظر غداً من يقرؤها عليك.

ثم قُدّم مازيار صاحب طبرستان، فقالوا للإفشين: تعرف هذا؟ قال: لا، قالوا للمازيار: تعرف هذا؟ قال: نعم، هذا الإفشين، فقالوا له: هذا المازيار، قال: نعم، قد عرفته الآن، قالوا: هل كاتبته؟ قال: لا، قالوا للمازيار: هل كتب إليك؟ قال: نعم، كتب أخوه خاش إلى أخي قوهيار، أنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيري وغيرك وغير بابك، فأما بابك فإنه بحمقه قتل نفسه[1]، ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فأبى

(١) أبدى الإفشين استعداده لقتال بابك الخرمي أمام المعتصم، وأبدى شجاعته، وأعلن أنه سيلقّنه درساً وستكون نهايته على يديه، وذلك خوفاً من أن يُوجّه إليه غيره فيقتله، فخرج إليه وقبض عليه، وحافظ على حياته، وحمله إلى المعتصم على أمل أن يشفع له، غير أنه لم ينجح في مسعاه إذ أمر المعتصم بقتل بابك.

حمقه إلا أن دلّاه فيما وقع فيه، فإن خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيري ومعي الفرسان وأهل النجدة والبأس، فإن وجّهت إليه لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة: العرب، والمغاربة، والأتراك، والعربي بمنزلة الكلب اطرح له كسرة خبزٍ ثم اضرب رأسه بالدبوس. وهؤلاء الذباب - يعني المغاربة - إنما هم أكلة رأس. وأولاد الشياطين - يعني الأتراك - فإنما هي ساعة حتى تنفذ سهامهم، ثم تجول الخيل عليهم جولةً فتأتي على آخرهم، ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام العجم، فقال الإفشين: هذا يدّعي على أخيه وأخي دعوى لا تجب عليّ، ولو كنت كتبت بهذا الكتاب إليه لأستميله إليّ ويثق بناحيتي كان غير مستنكرٍ، لأني إذا نصرت الخليفة بيدي، كنت بالحيلة أحرى أن أنصره لآخذ بقفاه، وآتي به الخليفة لأحظى به عنده، كما حظي به عبد الله بن طاهر عند الخليفة. ثم نُحّي المازيار.

وأخذ بُغا الكبير أبو موسى التركي الأفشين إلى محبسه، وأرسل المعتصم فاكهةً إلى الأفشين في محبسه مع ابنه هارون الواثق، فلما قدّمها له وأراد الانصراف، قال له الأفشين: أقرئ سيدي السلام، وقل له: أسألك أن توجّه إليّ ثقةً من قبلك يُؤدّي عني ما أقول، فأمر المعتصم حمدون بن إسماعيل أن يذهب إلى الأفشين،

قال حمدون: فبعث بي المعتصم إلى الأفشين، فقال لي: إنه سيطوّل عليك فلا تحتبس، قال: فدخلت عليه، وطبق الفاكهة بين يديه لم يمسّ منه واحدةً فما فوقها، فقال لي: اجلس، فجلست فاستمالني بالدهقنة، فقلت له: لا تطول فإن أمير المؤمنين قد تقدّم إليّ ألا أحتبس عندك، فأوجز، فقال: قل لأمير المؤمنين، أحسنت إليَّ وشرّفتني، وأوطأت الرجال عقبي، ثم قبلت فيّ كلاماً لم يتحقق عندك، ولم تتدبره بعقلك، كيف يكون هذا، وكيف يجوز لي أن أفعل هذا الذي بلغك! تُخْبَر بأني دسست إلى منكجور أن يخرج، وتقبله، وتخبر أني قلت للقائد الذي وجهته إلى منكجور: لا تحاربه، واغدر، وإن أحسست بأحد منا فانهزم من بين يديه، أنت رجل قد عرفت الحرب، وحاربت الرجال، وسست العساكر، هذا يمكن رأس عسكرٍ يقول لجندٍ يلقون قوماً: افعلوا كذا وكذا، هذا ما لا يسوغ لأحدٍ أن يفعله، ولو كان هذا يمكن ما كان ينبغي أن تقبله من عدوٍّ قد عرفت سببه، وأنت أولى بي، إنما أنا عبد من عبيدك، وصنيعتك، ولكن مثلي ومثلك يا أمير المؤمنين مثل رجل ربّى عجلاً له حتى أسمنه وكبر، وحسنت حاله، وكان له أصحاب اشتهوا أن يأكلوا من لحمه، فعرّضوا له بذبح العجل فلم يُجبهم إلى ذلك، فاتفقوا جميعاً

على أن قالوا له ذات يوم: ويحك لِمَ تربي هذا الأسد؟ هذا سبع، وقد كبر، والسبع إذا كبر يرجع إلى جنسه! فقال لهم: ويحكم هذا عجل بقرٍ، ما هو سبع؟ فقالوا: هذا سبع، سل من شئت عنه، وقد تقدّموا إلى جميع من يعرفونه، فقالوا لهم: إن سألكم عن العجل، فقولوا له: هذا سبع، فكلما سأل الرجل إنساناً عنه، وقال له: أما ترى هذا العجل ما أحسنه! قال الآخر: هذا سبع، هذا أسد، ويحك! فأمر بالعجل فذُبح، ولكني أنا ذلك العجل، كيف أقدر أن أكون أسداً! الله الله في أمري، اصطنعتني وشرّفتني وأنت سيدي ومولاي، أسأل الله أن تعطف بقلبك عليّ. ولكن لم يلبث قليلاً حتى مات.

ثم أمر المعتصم به فحُمل إلى منزل إيتاخ، فجاءوا إليه فأخرجوه فصلبوه على باب العامة ليراه الناس، ثم طرح بباب العامة مع خشبته، فأحرق وحُمل الرماد، وطُرح في دجلة.

وكان المعتصم حين أمر بحبسه وجّه سليمان بن وهب الكاتب يُحصي جميع ما في دار الإفشين ويكتبه في ليلةٍ من الليالي، وقصر الإفشين بالمطيرة، فوُجد في داره بيت فيه تمثال إنسانٍ من خشبٍ عليه حلية كثيرة وجوهر، وفي أُذنيه حجران أبيضان مشتبكان، عليهما

ذهب، فأخذ بعض من كان مع سليمان أحد الحجرين، وظنّ أنه جوهر له قيمة، وكان ذلك ليلاً، فلما أصبح ونزع عنه شباك الذهب، وجده حجراً شبيهاً بالصدف الذي يسمى الحبرون، من جنس الصدف الذي يقال له البوق، من صدف أخرج من منزله صور السماجة وغيرها وأصنام وغير ذلك، والأطواف والخشب التي أعدها، وكان له متاع بـ(الوزيرية)، فوُجد فيه أيضاً صنم آخر، ووجدوا في كتبه كتاباً من كتب المجوس يقال له (زراوه) وأشياءَ كثيرةً من الكتب، فيها ديانته التي كان يدين بها.

وكان موت الإفشين في شعبان سنة ٢٢٦هـ[1].

وقال أبو تمام يمدح المعتصم ويذكر إحراق الإفشين:

الحقّ أبلج والسيوف عوارِ[2]

فحذار من أسد العرين حذارِ

ملك غدا جار الخلافة منكم

والله قد أوصى بحفظ الجار

جالت بخيذرَ جولة المقدار

فأحلّه الطغيان دار بوار

(١) تاريخ الطبري.

(٢) عواري: جمع عارية.

كـم نـعـمـةٍ لـلـه كـانـت عـنـده
فـكـأنّـهـا فـي غـربـةٍ وإسـار[1]
كسيت سبائب[2] لؤمه فتضاءلت
كتضاؤل الحسناء في الأطمار[3]
صادى[4] أمير المؤمنين بزبرجٍ
في طيّه حمة الشجاع الضاري
مـكـراً بـنـى ركـنـيـه إلا أنـه
وطّد الأساس على شفيرٍ هار
حـتـى إذا مـا الله شـقّ غـبـاره
عن مستكنّ الكفر والإصرار
ونحا لهذا الدين شفرته انثنى
والـحـقّ مـنـه قـانـئ[5] الأظـفـار
هـذا الـنـبـي وكـان صـفـوة ربّـه
من بين بادٍ[6] في الأنام وقار[7]
قد خصّ من أهل النفاق عصابةً
وهـم أشـدّ أذىً مـن الـكـفّـار

---

(١) الإسار: الأسر. (٢) سبائب: قطع كتان رقيقة.
(٣) الأطمار: الثياب البالية. (٤) صادى: عارض وخالف.
(٥) قانئ: شديد الحمرة.
(٦) البادي: البدوي، أهل البادية.
(٧) قاري: ساكن القرية أي الحضر.

ما كان لولا فُحش غدرة خيذرٍ[1]
ليكون في الإسلام عام فجار
ما زال سرّ الكفر بين ضلوعه
حتى اصطلى سرّ الزناد الواري
ناراً يساور جسمه من حرّها
لهبٌ كما عصفرتَ[2] شقّ إزار
طارت له شُعَلٌ يُهدِّم لفحُها
أركانه هدماً بغير غبار
لله من نارٍ رأيت ضياءها
ضاق الفضاء به على النظّار
مشبوبةٍ رُفِعت لأعظم مُشركٍ
ما كان يرفع ضوءها للساري
صلّى لها حيّاً وكان وقودها
ميتاً ويدخلها مع الفجّار
وكذاك أهل النار في الدنيا هُمُ
يومَ القيامة جُلُّ أهل النّار

(١) خيذر: الإفشين، وفي بعض الروايات معرب إلى حيدر.
(٢) عصفرت: صبغت بالعصفر.

واستنشقوا منه قُتاراً[1] نشره
من عنبرٍ ذفرٍ ومسك داري[2]
وتحدّثوا عن هُلكه كحديث مَنْ
بالبدو عن متتابع الأمطار
وتباشروا كتباشر الحرمين في
قُحم السنين بأرخص الأسعار
كانت شماتة شامتٍ عاراً فقد
صارت به تنضو[3] ثياب العار
قد كان بوّأه الخليفة جانباً
من قلبه حرماً على الأقدار
فسقاه ماء الخفض غير مُصرّدٍ[4]
وأنامه في الأمن غير غرار
ورأى به ما لم يكن يوماً رأى
عمرو بن شاسٍ قبله بعرار[5]

---

(١) القتار: رائحة البخور.
(٢) داري: دارين، ميناء في البحرين يحمل إليها المسك من الهند فينسب لها.
(٣) تنضو: تخلع.
(٤) غير مصرّد: غير مقلل.
(٥) عرار بن عمرو بن شاس الأسدي.

فإذا ابن كافرةٍ يُسرُّ بكفره

وجداً كوجد فرزدق[1] بنُوار[2]

وإذا تذكّره بكاه كما بكى

كعبٌ[3] زمان رثى أبا المغوار[4]

دلّت زخارفُهُ الخليفةَ أنّه

ما كل عودٍ ناضرٍ بنضار

يا قابضاً يد آل كاوس[5] عادلاً

أتبع يميناً منهم بيسار

ألحق جبيناً دامياً رمّلته

بقفاً وصدراً خائناً بصدار

واعلم بأنك إنما تُلقيهم

في بعض ما حفروا من الآبار

لو لم يكد للسامريّ قبيله

ما خار عجلهم بغير خوار

---

(١) الفرزدق: الشاعر المعروف؛ همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي المتوفى سنة ١١٠هـ.

(٢) نوار زوجة الفرزدق التي طلقها فندم بعد ذلك وقال:

ندمت ندامة القسعي لما   غدت مني مطلقةً نوار

(٣) كعب: كعب بن سعد الغنوي.

(٤) أبو المغوار: كنية أخي كعب بن سعد.

(٥) كاوس: أبو الإفشين.

وثمود لو لم يدهنوا[1] في ربهم
لم تُرْمَ ناقتُه بسهم قُدار
ولقد شفى الأحشاء من بُرحائها[2]
أن صار بابكُ[3] جار مازَيار[4]
سود اللباس كأنما نسجت لهم
أيدي السموم مدارعاً من قار
بكروا وأسروا في متون ضوامرٍ
قيدت لهم من مربط النجّار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم
أبداً على سفرٍ من الأسفار
كادوا النبوة والهدى فتقطّعت
أعناقهم في ذلك المضمار
جهلوا فلم يستكثروا من طاعةٍ
معروفةٍ بعمارة الأعمار
فاشدد بهارون الخلافة إنه
سكنٌ لوحشتها ودارُ قرار

---

(١) المداهنة: النفاق والخداع، وهنا بمعنى الكفر.
(٢) البرحاء: شدة الأذى.
(٣) بابك: هو بابك الخرمي.
(٤) مازيار: مازيار بن قارن الذي خلع في طبرستان سنة ٢٢٤هـ.

بفتى بني العباس والقمر الذي
حفّته أنجم يعربٍ ونزار
كرم الخؤولة والعمومة مجّه
سلفا قريش فيه والأنصار
هو نوءُ يُمْنٍ فيهم وسعادةٍ
وسراج ليلٍ فيهم ونهار
فاقمع[1] شياطين النفاق بمهتدٍ
ترضى البريّةُ هديَه والباري
ليسير في الآفاق سيرة رأفةٍ
ويسوسها بسكينةٍ ووقار
فالصين منظومٌ بأندلسٍ إلى
حيطان روميةٍ فملكِ ذمار
ولقد علمتَ بأن ذلك مِعصمٌ
ما كنت تتركه بغير سوار
فالأرض دار أقفرت ما لم يكن
من هاشمٍ ربٌّ لتلك الدار
سُوَرُ القرآن الغرُّ فيكم أُنزلت
ولكم تُصاغ محاسن الأشعار

(١) قمع: قهر وأذل.

الولايات:

كانت الولايات هادئةً بصفةٍ عامةٍ أيام المعتصم، لكن في بلاد مشرق الخلافة تغلي أحقاد المتلوّنين، ويتحرّك المتعصّبون منهم في بلاد الجبال وشمال شرقي ديار الإسلام في أذربيجان وطبرستان حيث المواقع الحصينة والحصون المنيعة فيُظهرون ما تكنّه نفوسهم، ويُبدون نقمتهم، ويُعلنون كفرهم الصريح، ويُبيّنون سخطهم على صبر جماعتهم من المتلوّنين وعلى سياسة المكر التي يتبعونها وما فيها من بطءٍ لا يجدي ونفاقٍ لا يفيد، وتُشغل حركات الكفر هذا المجتمع، وتُشجّع الأعداء.

وكانت حركة خروج أبي حرب المبرقع اليماني في الشام في منطقة الرملة من فلسطين سنة ٢٢٧هـ. كما كانت حركة الزطّ على طريق البصرة سنة ٢٢٠هـ، وحركة محمد بن القاسم الطالبي بالطالقان سنة ٢١٩هـ. وقد ذكرنا هذه الحركات، ولم يكن لها ذلك الأثر بل تكاد تُعدّ محليةً.

وولّى المعتصم على اليمن جعفر بن دينار سنة ٢٢٤هـ ثم لم يلبث أن غضب عليه وعزله سنة ٢٢٥هـ، ولكن رضي عنه بعد ذلك.

وحجّ بالناس السنوات الثلاث الأولى من خلافة المعتصم صالح بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وحج بالسنوات الباقية من خلافة المعتصم محمد بن داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس. وهذا يدلّ على الهدوء العام في ديار الخلافة.

أما الإمارات المستقلة عن دار الخلافة فكان معظمها في غربي دار الخلافة؛ أي في إفريقية والأندلس وهي:

١" ـ الأغالبة:

كان يحكم دولة الأغالبة بالقيروان في إفريقية زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب، وكان المسلمون في عهده قد فتحوا جزيرا صقلية بقيادة أسد بن الفرات[١].

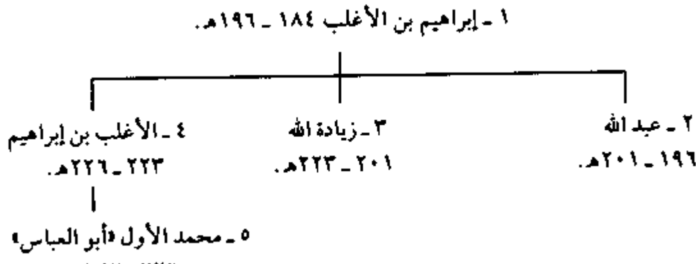
---

(١) أسد بن الفرات بن سنان مولى بني سُليم، أبو عبد الله: قاضي القيروان وأحد القادة الفاتحين، أصله من خراسان، ولد بـ(حرّان) سنة ١٤٤هـ، ورحل أبوه إلى القيروان في جيش ابن =

ولكن لم يتمكّنوا من دخول (قصريانة) إذ ساروا إليها سنة ٢١٩هـ، ولم يستولوا عليها، وكانوا يعودون إليها مرةً بعد أخرى ثم يرتدون عنها، ويعملون على دخول غيرها من المدن. وتوفي زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب سنة ٢٢٣هـ، وخلفه أخوه الأغلب أبو عفّان بن إبراهيم بن الأغلب، فأرسل الجند إلى صقلية، وأخذ المسلمون عدة حصونٍ في الجزيرة في أيامه، كما انتصروا على أسطولٍ روميٍ، وأجبروه على العودة إلى القسطنطينية مهزوماً، وسارت سرية إلى مدينة قصريانة فحاصرتها.

وتوفي الأغلب أبو عفّان سنة ٢٢٦هـ، وهو في الثالثة والخمسين من عمره، وخلفه ابنه أبو العباس محمد الأول.

= الأشعث، فأخذه معه وهو طفل، فنشأ بها، ثم بتونس، ورحل إلى المشرق في طلب الحديث سنة ١٧٢هـ، ثم رجع وولي قضاء القيروان سنة ٢٠٤هـ، وكان شجاعاً حازماً صاحب رأي، سار إلى صقلية على رأس عشرة آلافٍ ففتحها سنة ٢١٢هـ، وتوفي سنة ٢١٣هـ من جراحاتٍ أصابته وهو محاصر «سرقوسة» براً وبحراً.



٢" ـ الدولة الرستمية:

وهي دولة الخوارج الأباضية التي أسسها عبد الرحمن بن رستم سنة ١٦١هـ، وخلفه ابنه عبد الوهاب بن عبد الرحمن سنة ١٧١هـ، وخلفه ابنه أفلح بن عبد الوهاب سنة ٢٠٨هـ، واستمر حكمه حتى سنة ٢٥٨هـ، ومقرّ هذه الدولة مدينة «تياهرت» في بلاد الجزائر اليوم.

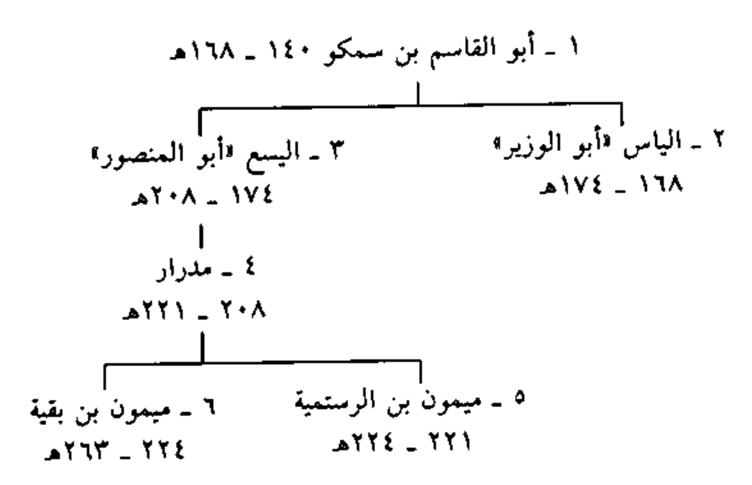
١ ـ عبد الرحمن بن رستم ١٦١ ـ ١٧١هـ.
٢ ـ عبد الوهاب ١٧١ ـ ٢٠٨هـ.
٣ ـ أفلح ٢٠٨ ـ ٢٥٨هـ

٣" ـ دولة الخوارج الصفرية:

وكان قد أقامها أبو القاسم سمكو سنة ١٤٠هـ في سجلماسة في جنوب بلاد المغرب اليوم، واستمرّ في حكمها حتى توفي ١٦٨هـ، فخلفه ابنه الياس بن أبي القاسم، والذي عُرف باسم «أبو الوزير»، وبقي حتى

توفي سنة ١٧٤هـ، فخلفه أخوه اليسع بن أبي القاسم، وقد عُرف باسم «أبو المنصور»، وبقي حتى سنة ٢٠٨هـ، وقد ثارت الأباضية في أيامه في وادي «درعه»، غير أنه قضى على ثورتهم، وبطش بهم، وتولى الأمر مكانه ابنه مدرار، وكانت إحدى زوجاته بنت عبد الرحمن بن رستم مؤسس دولة الخوارج الأباضية.

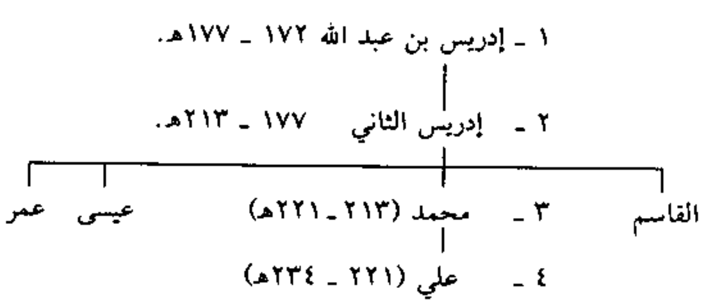
خلع مدرار بن أبي المنصور نفسه من الحكم، وولّى مكانه ابنه ميمون بن الرستمية، وطرد ابنه الآخر ميمون بن بقية وذلك سنة ٢٢١هـ، فنشأ خلاف بين الطرفين استمرّ ثلاث سنوات، تغلّب إثر ذلك ميمون بن بقية حيث كانت تدعمه الصفرية، وعندما استقرّ الحكم لميمون بن بقية طرد أخاه ميمون بن الرستمية إلى وادي درعه، ونصّب أباه إماماً مرةً ثانيةً، وهكذا عاد مدرار بن أبي المنصور مرةً أخرى حاكماً للدولة، غير أنه عاد وطلب ابنه ميمون بن الرستمية، فعندها أرغمت الخوارج الصفرية ميمون بن بقية على الإمامة، وطرد أبيه، فطُرد إلى إحدى قرى سلجماسة حيث بقي فيها حتى توفي سنة ٢٥٣هـ، وبقي ميمون بن بقية حاكماً لدولة بني مدرار وإماماً للصفرية حتى سنة ٢٦٣هـ.

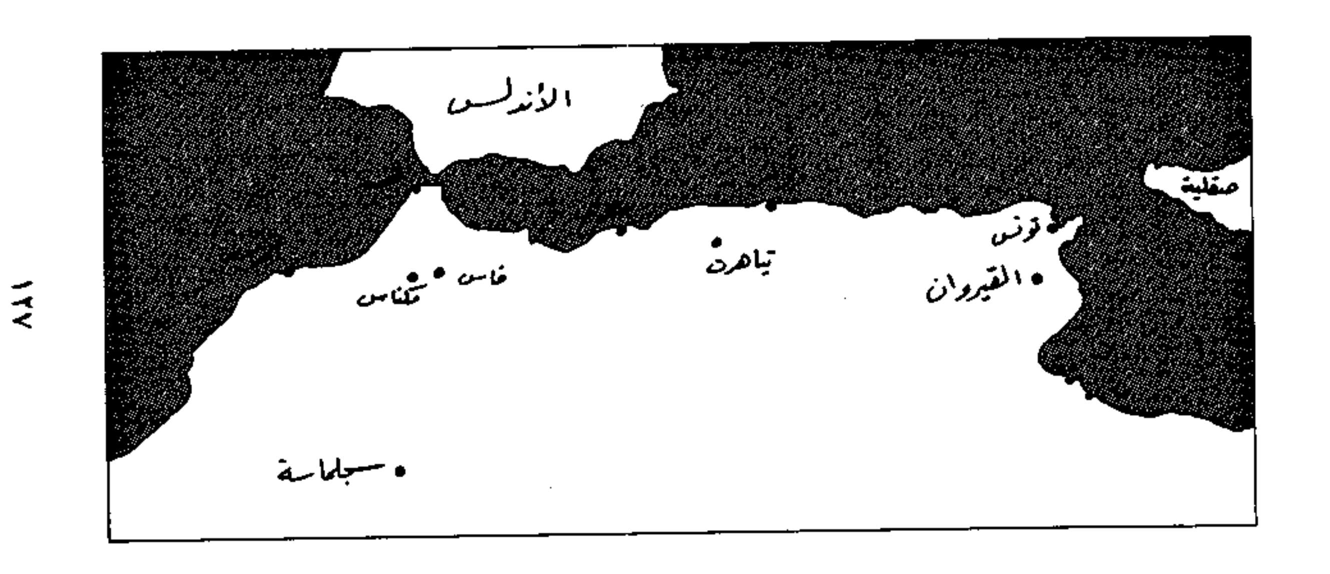


٤" ـ دولة الأدارسة:

وقد أسسها إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب سنة ١٧٢هـ، وكان قد وصل إلى المغرب فاراً بعد أن نجا من معركة فخّ التي وقعت سنة ١٦٩هـ في أحد الأودية القريبة من مكة وهو وادي فخّ. وبنى مدينة فاس وجعلها قاعدة ملكه، وبقي حتى توفي سنة ١٧٧هـ، وخلفه ابنه إدريس الثاني الذي كان لا يزال جنيناً في بطن أمه عندما مات أبوه، وقام بشؤون البربر مولى أبيه، وكان يدعى «راشد» فلما قُتل راشد كفل إدريس الثاني أبو خالد العبدي، وفي سنة ١٨٨هـ قام إدريس الثاني بالأمر بنفسه، وبنى مدينة العالية في المكان المعروف بـ«دار القيطون»، وهي مقابل مدينة فاس، يفصل بينهما وادٍ صغير، وهو رافد من

روافد نهر «سبو» وقد سكن في هذه المدينة الذين فرّوا من الأندلس بعد معركة الربض سنة ١٨١هـ، واستمرّ إدريس الثاني في الحكم حتى توفي سنة ٢١٣هـ، وهو في السادسة والثلاثين من عمره، وخلفه ابنه محمد بن إدريس، وفي عهده اختلف الأدارسة إذ نازع محمداً أخوه عيسى بن إدريس، وكان والياً على أزمور، وأراد أن يستعين عليه بأخيه القاسم بن إدريس والي طنجة غير أن القاسم قد رفض ذلك، فاستنجد بأخيه عمر والي مكناس فساعده، ولكن محمداً انتصر على أخويه في مكناس وأزمور، وتوفي محمد بن إدريس الثاني سنة ٢٢١هـ، فخلفه ابنه، وكان عمره تسع سنواتٍ عندما آل إليه الحكم، وتلقّب بـ«حيدرة» واستمرّ في الحكم ثلاث عشرة سنةً حيث توفي سنة ٢٣٤هـ، ولم يحدث في أيامه ما يستحق الذكر.

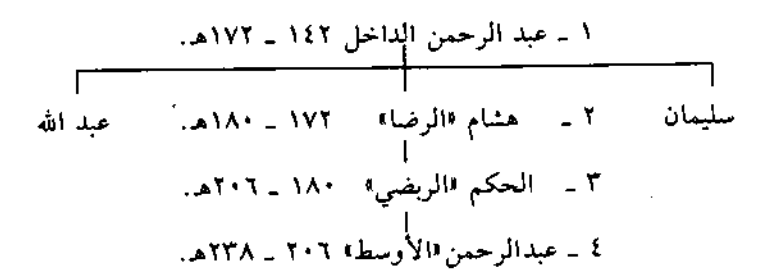



الأندلس
صقلية
تونس
القيروان
تاهرت
فاس
مكناس
سجلماسة

٥" ـ الأندلس:

وطدّ عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان أركان حكمه في الأندلس، واستمرّ في سلطانه حتى توفي سنة ١٧٢هـ، وكان قد ثبت أمام الرياح التي أرادت أن تعصف بملكه الذي بناه، وخلفه ابنه هشام الرضا فحكم الأندلس ثمان سنواتٍ ١٧٢ ـ ١٨٠هـ، ووقع في عهده خلاف بينه وبين أخيه سليمان الذي هو أكبر منه، وقد أخذ سليمان البيعة لنفسه في طليطلة لكن سليمان هُزم أمام أخيه هشام عام ١٧٤هـ، ونُفي إلى المغرب، وبعد أن وطّد هشام حكمه اتجه إلى قتال النصارى في الشمال فأرسل إليهم الحملات، كما أرسل جيوشاً إلى «سبتمانيا» في جنوبي فرنسا. وتوفي هشام سنة ١٨٠هـ، وخلفه ابنه الحكم الذي عُرف بـ«الربضي»، واستمرّ حكمه حتى عام ٢٠٦هـ، ونازعه على الحكم عمّاه سليمان وعبد الله، أما سليمان فقد كان في «طنجة» في المغرب وعبر إلى الأندلس بقوةٍ من المرتزقة، غير أنه هُزم وقُتل سنة ١٨٤هـ، أما عمه الآخر فقد كان في «تياهرت» عند الخوارج الأباضية بالمغرب الأوسط فانتقل إلى الأندلس غير أنه هُزم، وعفا عنه ابن أخيه الحكم، وأجبره على الإقامة في بلنسية، وكان يدفع له مرتباً سنوياً ضخماً، كما قامت ضده عدة حركاتٍ، أولاها في طليطلة وقد

قضى عليها بالحيلة إذ ولّى عليها عمروس بن يوسف الذي تظاهر بكره الأمير (الحكم)، ودعا كبار أهل البلدة إلى وليمةٍ بالقلعة، وتخلّص منهم، وذلك عام ١٨١هـ، وكانت الحركة الثانية بالعاصمة قرطبة، إذ حاصر قصر الأمير أهل حيّ الربض لخلافٍ بسيطٍ مع جنديٍ، فأرسل الأمير سرّاً من أشعل النار بحيّ الربض، فاضطر المحاصرون إلى أن يتركوا مواقعهم ويتجهوا إلى حيّهم لإطفاء الحريق. وعندما انتهت الحركة أمر الأمير (الحكم) أن يُهدم حيّ الربض، وأن يُحرث، ويُزرع مكانه، واضطر عدد من أهله إلى مغادرة الأندلس، فاتجه بعضهم إلى المغرب، واستقروا عند الأدارسة هناك وبين البربر، ووصل بعضهم عن طريق البحر إلى الإسكندرية في مصر ونزلوا فيها.



استغلّ النصارى في الشمال هذه الأحداث، وهاجموا «أرغونة» إلا أن الحكم استطاع أن يردّهم على أعقابهم خاسرين.

وثار على الحكم والي برشلونة، واستنجد بشارلمان ملك الفرنجة، غير أنه فشل في ثورته.

وتوفي الحكم سنة ٢٠٦هـ، وخلفه ابنه عبد الرحمن الذي عُرف بـ«عبد الرحمن الأوسط»، وفي عهده استتب الأمن، وساد النظام، فانصرف إلى العلم والبناء والاهتمام بشؤون الدولة، كما اعتنق في أيامه الإسلام عدد كبير من النصارى الإسبان. ومع الحرية والأمن التي عاش بهما النصارى إلا أنه قد نشأت عندهم حركات الاستخفاف: وهي شتم رسول الله محمد ﷺ، والكلام السيء عن كتاب الله القرآن الكريم بشكلٍ جماعيٍ وعلنيٍ وذلك بتحريضٍ من بعض الرهبان.

وفي عهد عبد الرحمن الأوسط هاجم أمير «ليون» وبعض أمراء نصارى شمالي الأندلس المدن الإسلامية غير أنهم لم يظفروا بشيء.

وخالف أهل طليطلة الأمير وخلعوا الطاعة فأرسل إليهم عبد الرحمن الأوسط جيشاً مع أمية بن الحكم فحاصر مدينة طليطلة، واشتدّ في حصارهم، وقطع

الأشجار، وأهلك الزروع فلم يُذعنوا إلى الطاعة فرحل عنهم، وأنزل بقلعة «رباح» جيشاً بقيادة ميسرة المعروف بفتى أبي أيوب، فلما ابتعدوا عنه خرج جمع كبير من أهل طليطلة لعلهم يجدون فرصةً وغفلةً من ميسرة فينالون منه ومن أصحابه، وكان ميسرة قد بلغه الخبر فجعل الكمين في مواضع، فلما وصل أهل طليطلة إلى قلعة «رباح» للغارة خرج عليهم الكمين من جوانبهم، ووضعوا السيف فيهم، وأكثروا فيهم القتل، وعاد من سلم منهم منهزماً إلى طليطلة، وذلك سنة ٢١٩هـ.

وسيّر عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٢٠هـ جيشاً إلى طليطلة فقاتلوها، ولكن لم يظفروا بها. وخرج جماعة من أهل طليطلة إلى قلعة رباح وانضموا إلى جند عبد الرحمن فيها، وتعاونوا معهم على قتال باقي أهالي مدينتهم فحاصروها، ولكن لم يصلوا إلى نتيجة، وذلك سنة ٢٢١هـ.

وبعث عبد الرحمن الأوسط أخاه الوليد بن الحكم على رأس جيشٍ إلى طليطلة، فحاصرها وشدّد الحصار حتى بلغ بأهلها الجهد كل مبلغٍ وضعفوا عن القتال والدفع فافتتحها قهراً يوم السبت لثمانٍ خلون من شهر رجب سنة ٢٢٢هـ.

وسيّر عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٢٤هـ عبد الله المعروف بـ«ابن البلنسي» إلى بلاد شمالي الأندلس، فوصلوا إلى «أَلَبة» والقلاع أي اقتربوا من سواحل المحيط الأطلسي من ناحية الشمال «خليج بسكاي» فلم يبق بينهم وبين السواحل سوى ستين كيلومتراً، وجرى قتال شديد بين الطرفين، وانتصر فيه المسلمون انتصاراً مؤزّراً.

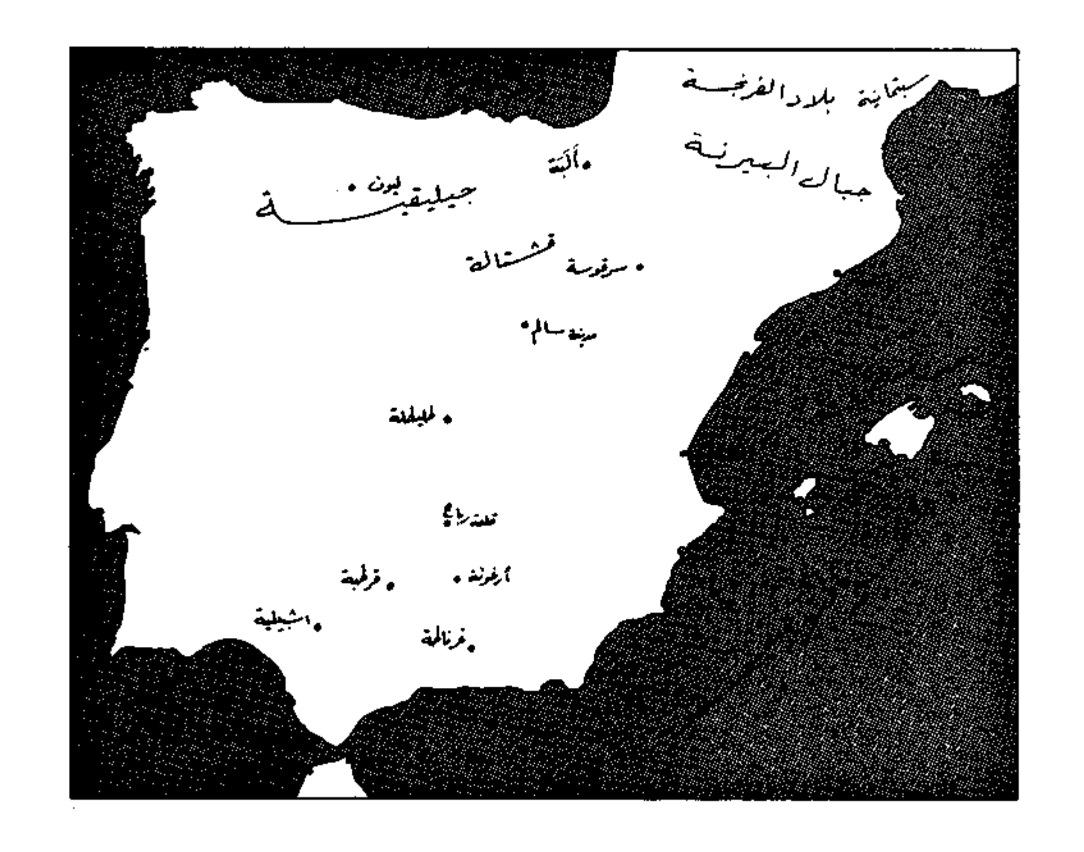
وحاول الطاغية الإغارة على مدينة سالم من الأندلس فسار إليه «فرتون بن موسى» في عسكرٍ جرارٍ، والتقى به وقاتله، فهزم الطاغية، وكثر القتل في عسكره، ثم اتجه ابن موسى إلى الحصن الذي بناه أهل «ألبة» مقابل ثغور المسلمين فحاصره، وفتحه عنوةً، وهدمه.

وسار عبد الرحمن الأوسط أمير الأندلس بنفسه على رأس جيشٍ سنة ٢٢٥هـ فدخل بلاد جيليقية من الشمال الإسباني، ففتح عدة حصونٍ، وغنم الكثير، وسبى ثم عاد إلى قرطبة.

أرسل تيوفيل بن ميخائيل ملك بيزنطة وفداً وهدايا في محاولةٍ لعقد حلفٍ بينهما ضد العباسيين، وذلك سنة ٢٢٥هـ بعد الهزيمة التي مُنِيَ بها الروم أمام الخليفة

المعتصم في أنقرة وعمورية، وذكّر تيوفيل عبد الرحمن بمعاداة العباسيين لبني أمية وأخذ الحكم منهم، وما قُتل من الأمويين على يد بني العباس، وردّ عبد الرحمن بإرسال وفدٍ إلى القسطنطينية، ونال من العباسيين، ولكن لم تتعدّ الوفود الكلام المعسول الذي يلائم كلا الطرفين.

شيّد عبد الرحمن الأوسط القصور، وجلب الماء العذب إلى قرطبة، وبنى له مصنعاً كبيراً يرتاده الناس، وبنى الأرصفة وعمل عليها السقائف، وبنى المساجد في الأندلس، ومنها جامع إشبيلية، واتخذ السكة (ضرب النقود) بقرطبة، وضرب الدارهم باسمه، ولم يكن ذلك في الأندلس مذ أن فتحها المسلمون، ونظم الجيش، واستكثر من الأسلحة والعُدد.


سبتمانية بلاد الفرنجة
جبال البيرنة
ألبة
ليون
جليقية
قشتالة
سرقوسة
مدينة سالم
طليطلة
قلعة رباح
قرطبة
اشبيلية
غرناطة

الفصل الثالث

الجهاد أيام المعتصم

شُغل المسلمون في أيام المعتصم الأولى بأحداث الداخل التي أشعلها المتلوّنون بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشرٍ، وكانت الخرّميّة أهمها، وقد أشغلت المسلمين اثنتين وعشرين سنةً، منها ما يقرب من أربع سنواتٍ في عهد المعتصم، وكان أثر المتلوّنين ودورهم فيها ظاهراً، بل كانت من بعض حركاتهم، وهذا ما ألهى المسلمين عن قتال الروم ودعوة شعوبهم إلى الإسلام، وفي الوقت نفسه كان الروم يتهيّبون المسلمين ويخشون نزالهم ما دامت فكرة الجهاد هي السائدة يتحرّك المسلمون مجاهدين، ويُنازلون عدوّهم مجاهدين، وما دام الجهاد سمة القتال فإنه لن تقف قوة أمام المسلمين ـ بإذن الله ـ وهذا ما عرفه الروم بل وأعداء المسلمين كافةً، لهذا كانوا يتهيّبون لقاء المسلمين، ويعملون على إضعاف فكرة الجهاد، بل وإلى هذا اليوم فإن الجهاد

أكثر ما يُخيف أعداء المسلمين ويحرصون على إبعاد فكرة الجهاد عن الساحة بل وإماتتها والعمل على إزالتها، وإعطائها صفات مُنفّرة كالإرهاب، وإلصاقها بالجماعات الخارجة على النظام و....

شُغل المسلمون عن الروم، والروم يتهيّبون نزال المسلمين لذا لم يقع قتال بين الطرفين في أيام المعتصم الأولى، فلما ضيّق الإفشين على بابك الخرمي، ثم قهره، وأشرف بابك على الهلاك، وأيقن بالضعف من نفسه عن متابعة الحرب، كتب إلى ملك الروم تيوفيل بن ميخائيل بن جورجس، يعلمه أن ملك العرب قد وجّه عساكره ومقاتلته إليه، حتى وجّه خياطه ـ يعني جعفر بن دينار ـ وطبّاخه ـ يعني إيتاخ ـ ولم يبق على بابه أحد، فإن أردت الخروج إليه فاعلم أنه ليس في وجهك أحد يمنعك. وقد طمع بابك بكتابه ذلك إليه في أن ملك الروم إن تحرّك انكشف عن بابك بعض ما هو فيه، إذ يوجّه المعتصم بعض قواته التي تُقاتل بابك إلى ملك الروم ويُشغل بحربه، ولا يُستهان بقوة الروم.

وصل كتاب بابك إلى ملك الروم فأخذ بقراءته، فطاش صوابه إذ سبح بالخيال وتراءت أمامه الآمال فطغت عليه الأوهام، فعاش بالأحلام فترك الكتاب ولم

ينته من قراءته حيث غلبت عليه الخفّة والرعونة فتوهّم أنه سيحقّق ما لم يستطعه من سبقه من القياصرة، وسينتصر على المسلمين، وسيعيد لبيزنطة سابق مجدها وما فقدته من بلدان وما خرجت منه من أقطار، وتصوّر أنه لن يعود للمسلمين وِرد ولا إصدار.

ترك تيوفيل الكتاب وأمر بالاستعداد والنفير، وخرج بعد أيامٍ على رأس مائة ألفٍ أو يزيدون، فيهم من جنده بضعة وسبعون ألفاً وبقيتهم أتباع خرجوا حاقدين على المسلمين حرّكهم الأحبار وشحنهم حقداً الرهبان، وكان معه أيضاً أعداد من المحمّرة الذين كانوا قد خرجوا بإقليم الجبال فقاتلهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب فهزمهم، فلحقت جماعة منهم بالروم بإمرة «بارسيس»، فاستقبلهم ملك الروم وأعدّهم لمثل هذا اليوم، حيث جعل لهم مخصصاتٍ، وزوّجهم، واختار منهم مقاتلةً يستعين بهم في أهم أموره.

اتّجه تيوفيل ملك الروم إلى ثغر «زِبطرة» فدخلها فقتل رجالها، وسبى الذراري والنساء التي فيها، وهدم البيوت وأحرقها، ثم مضى إلى «ملاطية» فأغار على أهلها، وعلى أهل الحصون، فسبى من المسلمات أكثر من ألف امرأةٍ فيما قيل، ومثّل بمن صار في يده من

المسلمين، فسمل أعينهم، وقطع آذانهم وأنوفهم. وهو عازم على البطش والطغيان وزيادة القتل والإرهاب ظنّاً منه أن هذا يوقع الرعب في نفوس المسلمين فتنهار المعنويات، ويتركون حصونهم وقراهم ويفرّون هاربين يطلبون النجاة فتخلو الطرق من أمامه، وتفتح له المدن والبلدان أبوابها وتستسلم له الحصون، ثم وجد نفسه أنه يعيش في سرابٍ كاذبٍ ووهمٍ خادعٍ.

هبّ أهل ثغور الشام وثغور الجزيرة مجاهدين إلا من لم يكن عنده دابة ولا سلاح. ووصل الخبر إلى الخليفة المعتصم، وأعلن النفير غير أنه لم يستطع الخروج حتى تكاملت التعبئة، فجلس ينتظر ذلك في دار العامة، وقد أحضر من بغداد القاضي عبد الرحمن بن إسحاق، وشعيب بن سهل ومعهما ثلاثمائةٍ وثمانية وعشرون رجلاً من أهل العدالة، فأشهدهم على ما وقف من الضياع، فجعل ثلثاً منها لله، وثلثاً لولده، وثلثاً لمواليه، ثم عسكر في غربي دجلة، وذلك يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر جمادى الأولى سنة ٢٢٣هـ.

ثم وجّه الخليفة إلى «زِبطرة» عُجيف بن عنبسة، وعمرو الفرغاني، ومحمد كوته وجماعةً من القادة نجدةً

لأهلها، فوجدوا أن ملك الروم قد انصرف إلى بلاده بعد أن فعل ما فعل، فوقف القادة هناك قليلاً حتى رجع الناس إلى قراهم، واطمأنوا. وكان المعتصم قد ظفر ببابك الخرميّ، واطمأنت نفسه من هذه الناحية، فقال: أي بلاد الروم أمنع وأحصن؟ فقيل: عموريّة، لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الفتح، وهي عين النصرانية وقاعدة لها، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية.

قتل الخليفة المعتصم بابك، وتجهّز للانطلاق نحو «عموريّة»، وكان جهازاً ضخماً حتى قيل: لم يتجهّز جهازاً مثله قبله خليفة قطّ من حيث السلاح والآلة والعُدد، وجعل على مقدمته «أشناس»، ويتلوه محمد بن إبراهيم، وعلى ميمنته «إيتاخ»، وعلى ميسرته جعفر بن دينار بن عبد الله الخياط، وعلى القلب «عُجيف بن عنبسة».

دخل المعتصم بلاد الروم وأقام على نهر سيحان، وهو على «سلوقية» قريباً من البحر، بينه وبين «طرسوس» مسيرة يوم. وأمر المعتصم قائده الإفشين حيدر بن كاوس أن يدخل بلاد الروم من «درب الحَدَث»، وسمّى له يوماً أمره أن يكون دخوله فيه، وقُدِّر لعسكره وعسكر «أشناس» يوماً جعله بينه وبين

اليوم الذي يدخل فيه الإفشين بقدر ما بين المسافتين إلى الموضع الذي رأى أن يجتمع العساكر فيه ـ وهو أنقرة ـ ودبّر النزول على أنقرة. فإذا فتحها ـ بإذن الله ـ سار إلى عمورية، إذ لم يكن شيء مما يقصد له من بلاد الروم أعظم من هاتين المدينتين، ولا أحرى أن تجعل غايته التي يؤمها.

عندما رأى المتلوّنون استعداد الخليفة لقتال الروم وجهازه وانطلاق الناس للجهاد معه توقّع المتلوّنون إحراز المسلمين النصر، ومعنى هذا عودة القوة للخلافة بعد الضعف الذي اعتراها لما قاموا به من حركاتٍ من خرّميّةٍ، ومحمّرة، ولما أحدثوه من خلافاتٍ بين أبناء الأسرة العباسية، لذا رأوا بثّ الأراجيف وإحداث فتنٍ بين المعتصم وقد خرج مجاهداً وبين ابن أخيه العباس بن المأمون كي تضعف معنويات المجاهدين وتفتر الهمة. وبدأ المنجمون يقولون: لقد ظهر لنا في الكتب، وأبدت لنا النجوم أن هذا الوقت ليس هو وقت فتح مدينة عمورية، ولن تفتح إلا وقت نضج التين والعنب. وأخذ الخرمية والمحمّرة يقولون: أيظنّ هؤلاء أن قتال الروم كقتالنا، ويقول بقية المتلوّنين الذين لا يبدون الكفر وإنما يظهرون الإسلام ويبطنون غيره: ليس

الروم اليوم كما كانوا بالأمس و. . . ومشى آخرون وراء العباس بن المأمون حتى استطاعوا التأثير عليه، فلان لهم، وخالف عمه، وأبدى استعداده للدعوة لنفسه ونزال عمه عندما يرجعون إذا صدق معه من حوله، وليس حوله سوى المتلونين. ولكن المسلمين لم يبالوا بهذه الشائعات أبداً، ولم يلتفتوا إلى تلك الأراجيف نهائياً، فالمجاهدون قد خرجوا لله، ومن أخلص لله، وصدق مع الله نصره الله. . .

فتح عمورية:

سار ملك الروم في جيشه قاصداً المعتصم حتى اقترب منه، وبقي بينهما ما يقرب من أربعة فراسخ. ودخل الإفشين بلاد الروم من ناحية درب «الحَدَث»، وضاق ملك الروم ذرعاً بموقفه؛ فإن هو ناجز الخليفة جاءه الإفشين من خلفه فيكون هو بين قوتين فيهلك، وإن اشتغل بأحدهما وترك الآخر أخذه من خلفه.

اقترب الإفشين من ملك الروم تيوفيل، فسار إليه ملك الروم في شرذمةٍ من جيشه، واستخلف على بقية جيشه أحد أقربائه، فالتقى مع الإفشين يوم الخميس لخمسٍ بقين من شعبان سنة ٢٢٣هـ. وثبت له الإفشين،

وعمل قتلاً في الروم، فصرع منهم عدداً كبيراً، وجرح آخرين، وتغلّب على ملك الروم. وبلغ تيوفيل أن بقية جيشه قد تفرّقوا عن قريبه وشردوا عنه، فأسرع تيوفيل إليهم فإذا نظام الجيش قد انحل، فغضب تيوفيل على قرابته، وضرب عنقه. ووصلت الأخبار كلها إلى المعتصم فسُرّ بذلك، وركب من فوره وسار إلى أنقرة، ووافاه الإفشين بمن معه إلى هناك فوجدوا أهلها قد هربوا، فتقووا منها بما وجدوا من طعامٍ.

قسّم المعتصم جيشه ثلاث فرقٍ، فالميمنة عليها الإفشين، والميسرة عليها أشناس، والمعتصم في القلب، وبين كل عسكرين فرسخان، وأمر كل أميرٍ من الإفشين وأشناس أن يجعل لجيشه ميمنةً وميسرةً وقلباً ومقدمةً وساقةً، وأنهم يحرقون ويخربون ما يمرّون عليه من قرىً، ويأسرون الرجال، ويأخذون ما يحصلون عليه من غنائم. وساروا متوجّهين إلى عمورية، وكان بينها وبين أنقرة سبع مراحل.

كان أول من وصل من الجيش إلى عمورية أشناس أمير الميسرة ضحوة يوم الخميس لخمسٍ خلون من رمضان سنة ٢٢٣هـ، فدار حولها دورةً، ثم نزل على ميلين منها، ثم قدم المعتصم صبيحة يوم الجمعة بعده،

فدار حولها دورةً ثم نزل قريباً منها، وقد تحصّن أهلها تحصّناً شديداً، وملؤوا أبراجها بالسلاح والرجال، وهي ذات سورٍ منيعٍ وأبراجٍ عاليةٍ ضخمةٍ كثيرةٍ. وقسّم المعتصم الأبراج على الأمراء فنزل كل أميرٍ تجاه الموضع الذي أقطعه وعيّنه له، ونزل الخليفة تجاه مكانٍ هناك أرشد إليه بعضهم، كان قد هدمه السيل وبني بناءً ضعيفاً دون أساسٍ، فنصب المعتصم المجانيق حول عمورية، فكان أول موضعٍ تهدّم من سورها، فبادر أهل البلد فسدّوا ذلك الموضع بالأخشاب الكبيرة المتلاصقة، فألحّ عليها المنجنيق فجعلوا فوقها البرادع ليخفّفوا من حدّة الحجر، فم تُغنِ شيئاً، وانهدم السور من ذلك الموضع وتصدّع.

كتب نائب عمورية «مناطس» إلى ملك الروم يعلمه بذلك، وبعث ذلك مع غلامين من قومهم، فلما مرّا بالجيش في طريقهما، أنكر المسلمون أمرهما فسألوهما: من أنتما؟ فقالا: من أصحاب فلان ـ لأميرٍ أسموه من أمراء المسلمين ـ فحُملا إلى المعتصم فاستجوبهما فإذا معهما كتاب «مناطيس» نائب عمورية إلى ملك الروم يعلمه بما حصل لهم من الحصار، وأنه عازم على الخروج من أبواب البلد بمن معه بغتةً على المسلمين،

ومناجزهم القتال كائناً في ذلك ما كان. فلما وقف المعتصم على ذلك أمر بالغلامين فخلع عليهما، وأمر أن يُعطى كل غلامٍ منهما بَدرة، فأسلما من فورهما.

أمر المعتصم بتجديد الحرس، وتشديد الحصار، وأخذ الاحتياط خوفاً من خروج الروم بغتةً. ورأى المعتصم ارتفاع سور المدينة وعمق خندقها، فأعمل المجانيق في هدم السور، وكان في الطريق قد غنم كثيراً من الشياه، فوزعها على الجند، وأمرهم بذبح الشياه وأكلها، وأن يجيء كل امرئٍ بملء جلد ما أكل تراباً، ففعل الناس ذلك، فردم الخندق وصار طريقاً مُمهّداً.

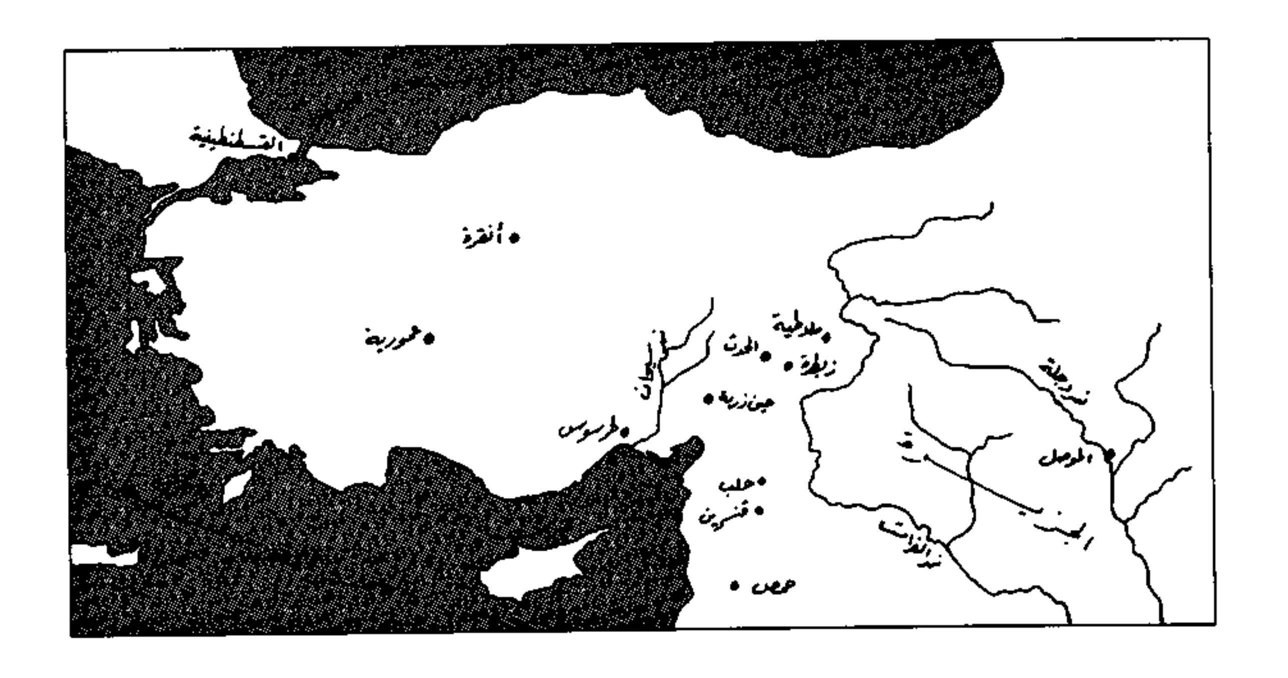
وبينما كان الناس على الجسر المردوم إذ هدم المنجنيق ذلك الموضع المعيب، فلما سقط ما بين البرجين سمع الناس دوياً عظيماً، فظنّ من لم يرَ ذلك أن الروم قد خرجوا على المسلمين بغتةً، فبعث المعتصم من نادى في الناس: أن السور قد سقط، ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً، لكن لم يكن ما هدم ليسع الخيل والرجال إذا ما دخلوا. وقوي الحصار، وقد وكّلت الروم بكل برجٍ من أبراج السور أميراً يحفظه، فضعف ذلك الأمير الذي هدمت ناحيته من السور عن ما يلقاه من الحصار، فذهب إلى

«مناطس» فسأله نجدةً، فامتنع أحد الأمراء من الروم أن ينجده، وقالوا: لا نترك ما نحن موكلون بحفظه.

فلما يئس الأمير الرومي الذي ضعف خرج إلى المعتصم ليجتمع به، فلما وصل إليه، أمر المعتصم المسلمين أن يدخلوا البلد من تلك الثغرة التي خلت من المقاتلة، فركب المسلمون نحوها، فجعلت الروم يشيرون إليهم ولا يقدرون على دفاعهم، فلم يلتفت إليهم المسلمون، ثم تكاثروا عليهم ودخلوا البلد قهراً، وتتابع المسلمون إليها يُكبّرون، وتفرّقت الروم عن أماكنها، فجعل المسلمون يقتلونهم في كل مكانٍ حيث وجدوهم، وقد حشروهم في كنيسةٍ لهم هائلةٍ، ففتحوها قسراً، وقتلوا من فيها، وأحرقوا عليهم باب الكنيسة فاحترقت واحترقوا عن آخرهم، ولم يبق فيها موضع محصن سوى المكان الذي فيه نائب عمورية «مناطس»، وهو في حصنٍ منيعٍ، فركب المعتصم فرسه وجاء حتى وقف مقابل الحصن الذي فيه «مناطس»، فناداه المنادي، ويحك يا مناطس! هذا أمير المؤمنين واقف تجاهك، فقالوا: ليس بمناطس هاهنا مرتين، فغضب المعتصم وولّى راجعاً، فنادى هذا مناطس، هذا مناطس، فرجع الخليفة ونصب السلالم على الحصن،

وطلعت الرسل إليه، فقالوا له: ويحك! انزل على حكم أمير المؤمنين، فتمنّع، ثم نزل متقلّداً سيفاً، فوضع السيف في عنقه ثم جيء به حتى أوقف بين يدي المعتصم، فضربه بالسوط على رأسه، ثم أمر به أن يمشي إلى مضرب الخليفة مهاناً، إلى المكان الذي ينزل به الخليفة، فأوثق هناك. وأخذ المسلمون من عمورية أموالاً لا تُحدّ ولا توصف، فحملوا منها ما أمكن حمله، وأمر المعتصم بإحراق ما بقي من ذلك وبإحراق ما هنالك من المجانيق وآلات الحرب، لئلا يتقوّى بها الروم على شيءٍ من حرب المسلمين، ثم انصرف المعتصم راجعاً إلى ناحية طرسوس في آخر شوال سنة ٢٢٣هـ، وكانت إقامته على عمورية خمسةً وعشرين يوماً.

لم يكن في أيام المعتصم من فتحٍ سوى هذه الغزوة التي فتحت فيها عمورية، غير أنها كانت ذات أهميةٍ بمكانٍ لما تمّ فيها من تقدّمٍ في عمق بلاد الروم، ولما تمّ فيها من نصرٍ، لذا أشاد بها الشعراء، وتكلّم عنها الأدباء، وكانت صورةً صادقةً عن الجهاد، وإن كان قتال الحركات الضالة والفئات المنحرفة ليس سوى نوعٍ من الجهاد.



القسطنطينية
أنقرة
عمورية
طرسوس
جيحان
ملطية
الحدث
زبطرة
عين زربة
حلب
قنسرين
حمص
نهر الفرات
نهر دجلة
الموصل

ومن أشهر ما قيل في فتح عمورية قول أبي تمام حبيب بن أوس بن الحارث الطائي:

السيف أصدق أنباءً من الكتب
في حدّه الحدّ بين الجِدّ واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في
مُتونهنّ جلاء الشكّ والرِّيَب

والعلم في شهب الأرماح لامعةً
بين الخميسين لا في السبعة الشهب

أين الرواية بل أين النجوم وما
صاغوه من زُخرفٍ فيها ومن كذب

تخرّصاً وأحاديثاً مُلفّقةً
ليست بنبعٍ إذا عدّت ولا غرب

عجائباً زعموا الأيام مجفلةً
عنهنّ في صفر الأصفار أو رجب

وخوّفوا الناس من دهماء مظلمةٍ
إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب

وصيّروا الأبْرُجَ العليا مرتبةً
ما كان منقلباً أو غير منقلب

يقضون بالأمر عنها وهي غافلة

ما دار في فلكٍ منها وفي قطب

لو بيّنت قطّ أمراً قبل موقعه

لم يخف ما حلّ بالأوثان والصُّلُب

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به

نظم من الشعر أو نثر من الخطب

فتح تفتَّحُ أبواب السماء له

وتبرز الأرض في أثوابها القُشُب

يا يوم وقعة عموريَّةَ انصرفت

عنك المنى حفّلاً معسولة الحلب

أبقيتَ جدَّ بني الإسلام في صُعُدٍ

والمشركين ودار الشرك في صبب

أُمّ لهم لو رجوا أن تفتدى جعلوا

فداءها كلّ أمٍّ برّةٍ وأب

وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها

كسرى وصدّت صدوداً عن أبي كرب

من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد

شابت نواصي الليالي وهي لم تَشِب

بِكر فما افترعتها كفّ حادثةٍ
ولا ترقّت إليها همّة النُّوَب

حتى إذا مخّض الله السنين لها
مخضة الحلية كانت زبدة الحقب

أتتهم الكربة السوداء سادرةً
منها وكان اسمها فرّاجة الكُرَب

جرى لها الفأل نحساً يوم أنقرةٍ
إذغودرت وحشةالساحات والرحب

لما رأت أختها بالأمس قد خربت
كان الخراب لها أعدى من الجرب

كم بين حيطانها من فارسٍ بطلٍ
قاني الذوائب من آني دم سرب

بسنّة السيف والخطّيّ من دمه
لا سنّة الدين والإسلام مختضب

لقد تركت أمير المؤمنين بها
للنار يوماً ذليل الصخر والخشب

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحىً
يُقِلُّه وسطها صبح من اللهب

حتى كأن جلابيب الدجى رغبت

عن لونها أو كأن الشمس لم تغب

ضوء من النار والظلماء عاكفة

وظلمة من دخانٍ في ضحىً شحب

فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت

والشمس واجبة في ذا ولم تجب

تصرّح الدهر تصريح الغمام لها

عن يوم هيجاء منها طاهرٍ جُنب

لم تطلع الشمس فيه يوم ذاك على

بانٍ بأهلٍ ولم تغرب على عزب

ما ربع ميّة معموراً يطيف به

غيلان أبهى ربىً من ربعها الخرب

ولا الخدود وإن أُدْمين من خجلٍ

أشهى إلى ناظري من خدّها الترب

سماجة غنيت منا العيون بها

عن كلّ حسنٍ بدا أو منظرٍ عجب

وحسن منقلبٍ تبدو عواقبه

جاءت بشاشته عن سوء منقلب

لم يعلم الكفر كم من أعصرٍ كمنت
له المنيّة بين السمر والقُضُب

تدبير معتصمٍ بالله منتقمٍ
لله مرتقبٍ في الله مرتغب

ومطعم النصل لم تكهم أسنته
يوماً ولا حجبت عن روح محتجب

لم يغزُ قوماً ولم ينهض إلى بلدٍ
إلا تقدّمه جيش من الرعب

لو لم يقد جحفلاً يوم الوغى لغدا
من نفسه وحدها في جحفلٍ لجب

رمى بك الله برجيها فهدّمها
ولو رمى بك غير الله لم تصب

من بعدما أشّبوها واثقين بها
والله مفتاح باب المعقل الأشب

وقال ذو أمرهم لا مرتع صدر
للسارحين وليس الوِرْدُ من كثب

أمانياً سلبتهم نجح هاجسها
ظبى السيوف وأطراف القنا السلب

إن الحِمامين من بيضٍ ومن سمر
دلو الحياتين من ماءٍ ومن عشب
لبيت صوتاً زبطريّاً هرقت له
كأس الكرى ورِضاب الخُرَّد العُرُب
عداك حرّ الثغور المستضامة عن
برد الثغور وعن سلسالها الحَصِب
أجبته معلناً بالسيف مُنصلتاً
ولو أجبت بغير السيف لم تجب
حتى تركت عمود الشرك منقعراً
ولم تعرج على الأوتاد والطُّنُب
لما رأى الحرب رأي العين توفلس
والحرب مشتقة المعنى من الحرب
غدا يُصرّف بالأموال جِزْيتها
فعزّه البحر ذو التيار والعبب
هيهات زعزعت الأرض الوقور به
عن غزو محتسبٍ لا غزو مكتسب
لم ينفق الذهب المربي بكثرته
على الحصى وبه فقر إلى الذهب

إن الأسود أسود الغاب همّتها

يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

ولّى وقد ألجم الخطيّ منطقه

بسكتةٍ تحتها الأحشاء في صخب

أحس قرابينه صرف الردى ومضى

يحثّ أنجى مطاياه من الهرب

موكّلاً بيَفاع الأرض يشرفه

من خفّة الخوف لا من خفّة الطرب

إن يعدُ من حرّها عدو الظليم فقد

أوسعت جاحمها من كثرة الحطب

تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت

جلودهم قبل النضج التين والعنب

يا رُبَّ حوباء لما اجتثّ دابرهم

طابت ولو ضمخت بالمسك لم تطب

ومغضبٍ رجعت بيض السيوف به

حيّ الرضى عن رداهم ميّتَ الغضب

والحرب قائمة في مأزقٍ لجبٍ

تجثو الرجال به صغراً على الرّكب

كم نيل تحت سناها من سنا قمرٍ
وتحت عارضها من عارضٍ شنب
كم كان في قطع أسباب الرقاب بها
إلى المخدَّرة العذراء من سبب
كم أحرزت قضب الهنديّ مصلتةً
تهتزّ من قضبٍ تهتزّ في كثب
بيض إذا انتضيت من حجبها رجعت
أحقّ بالبيض أبداناً من الحجب
خليفة الله جازى الله سعيك عن
جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها
تُنال إلا على جسرٍ من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رحم
موصولةٍ أو ذمامٍ غير مُنقضب
فبين أيامك اللاتي نُصرت بها
وبين أيام بدرٍ أقرب النسب
أبقت بني الأصفر المصفّر كاسمهم
صفر الوجوه وجلّت أوجه العرب

الفصل الرابع

شخصيّة المعتصم

• كان المعتصم ذا شجاعةٍ، وقوةٍ، وهمّةٍ، وكان عَرِياً من العلم.

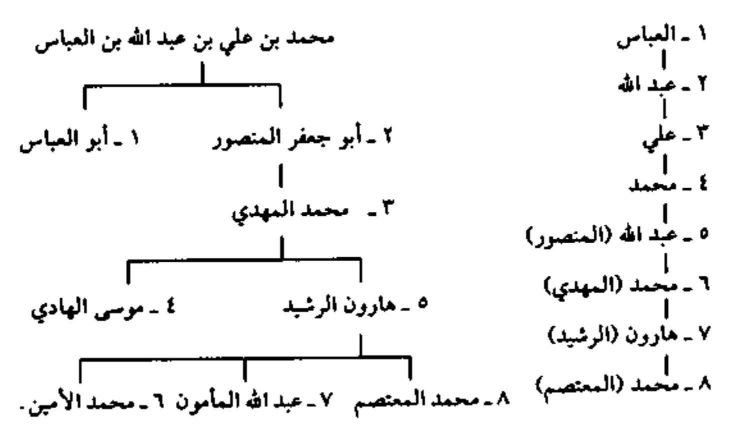
• كان مع المعتصم غلام في الكُتّاب يتعلّم معه، فمات الغلام، فقال له الرشيد أبوه: يا محمد مات غلامك، قال: نعم يا سيدي واستراح من الكتّاب، فقال: وإن الكتاب ليبلغ منك هذا، دعوه لا تعلموه، قيل: فكان يكتب ويقرأ قراءةً ضعيفةً.

• كان المعتصم من أعظم الخلفاء وأكثرهم هيبةً، لولا ما شان سؤدده بامتحان العلماء بخلق القرآن.

• كان من أشدّهم قوةً وبطشاً، كان يجعل زند الرجل بين أصبعيه فيكسره. وكان لحمه قاسياً حتى أنه يخرج ساعده لصاحبه، ويقول له: عضّ ساعدي بأكثر قوتك، فيمتنع هيبةً وتقديراً، فيقول: إنه لا يضرّني، فأروم

ذلك فإذا هو لا تعمل فيه الأسنّة فضلاً عن الأسنان.

• كان يقال للمعتصم المثمّن لأنه الثامن من ولد العباس، وثامن خلفاء بني العباس، وكان ثامن أولاد الرشيد، وبويع سنة ثماني عشرة ومائتين، واستخلف ثماني سنواتٍ، وثمانية أشهرٍ، وثمانية أيامٍ، وأنجب ثمانية بنين، وثماني بنات.



• كان إذا غضب لا يبالي من قتل. وقد هجاه دعبل[1] فخافه، وهرب حتى قدم مصر، ثم خرج منها إلى المغرب.

---

(١) دعبل بن علي بن رزين الخزاعي، أبو علي: ولد سنة ١٤٨هـ، وهو شاعر هجّاء، أصله من الكوفة، أقام ببغداد، له أخبار، وشعره جيد، وكان صديق البحتري، وصنّف كتاباً في «طبقات الشعراء». كان بذيء اللسان، مولعاً بالهجاء والحط من أقدار =

ومما قاله في هجائه:

ملوك بني العباس في الكتب سبعة
ولم تأتنا في ثامنٍ منهم الكتب
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة
غداة ثَوَوْا فيها وثامنهم كلب
وإني لأزهى كلبهم عنك رغبة
لأنك ذو ذنبٍ وليس له ذنب
لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم
وصيف وأشناس، وقد عظم الخطب[1]
وإني لأرجو أن تُرى من مغيبها
مطالع شمسٍ قد يغصّ بها الشرب
وهمّك تركيّ عليه مهانة
فأنت له أم، وأنت له أب

• سلك المعتصم ما كان عليه المأمون من القول بخلق القرآن، وختم عمره به من امتحان الناس بالقول بذلك، فكتب إلى البلاد بذلك، وأمر المعلمين أن

= الناس، هجا الخلفاء: الرشيد، والمأمون والمعتصم والواثق، ومن دونهم، وطال عمره، وتوفي سنة ٢٤٦هـ، كان طوالاً ضخماً.

(١) وصيف وأشناس قائدان من الأتراك الذين أتى بهم المعتصم.

يعلموا الصبيان ذلك، وقاسى الناس منه مشقةً في ذلك، وقتل عليه خلقاً من العلماء، وضرب الإمام أحمد بن حنبل سنة ٢٢٠هـ.

• أول من أدخل الترك في الديوان، حيث وجد فِتن المتلوّنين وعصبيتهم للفرس، فبعث إلى فرغانة وسمرقند وبلاد ما وراء النهر عامةً لشرائهم، وبذل الأموال فيهم، وألبسهم أحسن الثياب، فبدأت أراجيف المتلوّنين، وتمادى بعض الترك، واشتكى أهل بغداد، فبنى المعتصم سامراء، وانتقل إليها، وأخذ كبار الترك معه.

• كان المعتصم يُردّد أثناء مرضه الأخير: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾[1].

ذهبت الحيلة فليس حيلة.

أؤخذ من بين الخلق.

اللهم إنك تعلم أني أخافك من قبلي، ولا أخافك من قبلك، وأرجوك من قبلك، ولا أرجوك من قبلي.

• كان نقش خاتمة: «الحمد لله الذي ليس كمثله شيء».

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٤٤.

• من شعره:

قرب النحّام واعجل يا غلام
واطرح السرج عليه واللجام
أغلِمِ الأتراك أني خائض
لجّة الموت فمن شاء أقام

• كان قد عزم على المسير إلى أقصى الغرب في ديار الإسلام ليملك البلاد التي لم تدخل في ملك بني العباس لاستيلاء بني أمية عليها، وهي ديار الأندلس وما يتبعها. وقد قال لأحمد بن الخصيب: إن بني أمية ملكوا وما لأحدٍ منا ملك، وملكنا نحن ولهم بالأندلس هذا الأموي، فقدّر ما نحتاج إليه لمحاربته، وشرع في ذلك، ولكن وافته المنية.

• لم يجتمع الملوك بباب أحدٍ قط اجتماعهم بباب المعتصم، ولا ظفر ملك قط كظفره، أسر ملك أذربيجان، وملك طبرستان، وملك فرغانة، وملك طخارستان، وملك كابل.

• لما فرغ المعتصم من قصره بالميدان، وجلس فيه دخل عليه الناس، فنظم إسحاق الموصلي قصيدةً رائعةً فيه إلا أنه افتتحها بقوله:

يـا دارُ غـيّـرَكِ الـبـلـى ومـحـاكِ
يا ليت شعري ما الذي أبلاكِ؟

فتطيّر المعتصم، وتطيّر الناس، وتغامزوا، وتعجّبوا كيف ذهب هذا على إسحاق مع خبرته ومعرفته وطول خدمته للملوك، وخرّب المعتصم القصر بعد ذلك.

• من أقوال المعتصم:

إذا نُصر الهوى بطل الرأي.

من طلب الحق بما له وما عليه أدركه.

• كتب ملك الروم إلى المعتصم كتاباً يُهدّده فيه، فلما قُرئ عليه، قال للكاتب اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فقد قرأت كتابك، وسمعت خطابك، والجواب ما ترى، لا ما تسمع، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار.

• وجّه المعتصم إلى الشعراء ببابه: من منكم يحسن أن يقول فينا كما قال المنصور النمري في الرشيد.

إن الـمـكـارم والـمـعـروف أودية
أحلّك الله منها حيث تجتمع
من لـم يكن بأمين الله معتصماً
فليس بالصلوات الخمس ينتفع

إن أخلف القطر لم تخلف فواضله

أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

فقال أبو وهيب: فينا من يقول خيراً منه فيك، وقال:

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها

شمس الضحى، وأبو إسحاق، والقمر

تحكى أفاعيله في كل نائبةٍ

الليث، والغيث، والصمصامة الذكر

• مات المعتصم يوم الخميس لإحدى عشرة ليلةً بقيت من ربيع الأول سنة سبعٍ وعشرين ومائتين. وقد رثاه وزيره محمد بن عبد الملك وقد جمع بين الرثاء والتهنئة لولي العهد فقال:

قد قلتُ إذ غيّبوك واصطفت

عليك أيدٍ بالترب والطين

اذهب فنعم الحفيظ كنت على الـ

ـدنيا ونعم الظهير للدين

ما يجبرُ اللّهُ أمةً فَقَدَت

مثلك إلا بمثل هارون[1]

(١) تاريخ الخلفاء: جلال الدين السيوطي.

• كان المعتصم أبيض، أصهب اللحية طويلها، مربوعاً مشرَب اللون حمرة، حسن العينين.

• انقطع المعتصم في يوم مطر عن أصحابه، فبينا هو يسير على رحله إذ رأى شيخاً معه حمار عليه حمل شوكٍ، وقد زلق الحمار وسقط، والشيخ قائم ينتظر من يمرّ به فيعينه على حمله، فسأله المعتصم عن حاله فأخبره، فنزل عن دابته ليخلص الحمار من الوحل، ويرفع عليه حمله، فقال له الشيخ: بأبي أنت وأمي لا تبلل ثيابك وطيبك، فقال: لا عليك، ثم إنه خلص الحمار، وجعل الشوك عليه، وغسل يده، ثم ركب، فقال الشيخ: غفر الله لك يا شاب. ثم لحقه أصحابه فأمر للشيخ بأربعة آلاف درهمٍ، ووكّل به من يسير معه إلى بيته[1].

• كان شهماً، وله همّة عالية في الحرب، ومهابة عظيمة في القلوب، وكان كثير الإنفاق في الحرب لا في البناء ولا في غيره.

• قال أبو تمام يمدحه:

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

رقّت حواشي الدهرِ فهي تَمَرْمرُ
وغدا الثرى في حَلْيه يتكسّرُ
نزلتْ مقدمة المصيفِ حميدةً
ويد الشتاء جديدة لا تُكفرُ
لولا الذي غرس الشتاء بكفّه
قاسى المصيف هشائماً لا تُثمرُ
كم ليلةٍ آسى البلاد بنفسه
فيها ويومٍ وَبْلُهُ مُثْعَنْجِرُ
مطر يذوب الصحو منه وبعده
صحو يكاد من الغضارة يقطرُ
وندىً إذا ادّهنت بهِ لمم الثرى
خلت السحاب أتاه وهو معذّر
أربيعنا في تسع عشرة حِجّةً
حقّاً لهِنَّك لَلربيعُ الأزهر
ما كانت الأيام تُسلَبُ بهجةً
لو أن حسن الروض كان يُعمّر
أو لا ترى الأشياء إن هي غيَّرت
سمُجت وحسنَ الأرض حين تغيّر

دنيا معاشٌ للورى حتى إذا
حلّ الربيع فإنما هي منظر
من كل زاهرةٍ ترقرق بالندى
فكأنها عين إليك تحدّر
تبدو ويحجبها الجميم كأنها
عذراء تبدو تارةً وتخفّر
حتى غدت وهداتها ونجادها
فئتين في حلل الربيع تبختر
مصفرّة محمرّة فكأنها
عصب تيمّن في الوغى وتمضّر
من فاقعٍ غضّ النبات كأنه
درر تُشقّقُ قبلُ ثم تزعفر
أو ساطعٍ في حُمرةٍ فكأنما
يدنو إليه من الهواء معصفر
صبغ الذي لولا بدائع لطفه
ما عاد أصفر بعد إذ هو أخضر
خلق أطلّ من الربيع كأنه
خُلُقُ الإمام وهديه المتنشر

في الأرض من عدل الإمام وجوده
ومن النبات الغضّ سرج تزهر
تُنسى الرياض وما يروّض فعلُه
أبداً على مرّ الليالي يُذكر
إن الخليفة حين يُظلِم حادث
عين الهدى وله الخلافة محجر
كثرت به حركاتها ولقد تُرى
من فترةٍ وكأنها تتفكّر
ما زلت أعلم أن عقدة أمرها
في كفّه مذ خُلّيت تتخيّر
بالثامن المستخلف اتّسق الهدى
حتى تخيّر رشده المتحيّر
سكن الزمان فلا يد مذمومة
للحادثات ولا سَوَامٌ تُذعر
نَظَمَ البلاد فأصبحت وكأنها
عقد كأن العدل فيه جوهر
لم يبق مَبْدىً موحش إلا ارتوى
من ذكره فكأنما هو محضر

ملك يضلّ الفكر في أيامه
ويقلّ في نفحاته ما يكثر
فليعسرنّ على الليالي بعده
أن يبتلى بصروفهنّ المعسر

• أحضر المعتصم سنة ٢١٩هـ أحمد بن حنبل، واختبره في موضوع خلق القرآن، فلم يُجب أحمد بن حنبل - رحمه الله - إلى القول بخلق القرآن، فأمر به فجُلد جلداً عظيماً حتى غاب عقله، وتقطّع جلده، وحُبس مقيّداً.

وفاة المعتصم:

احتجم المعتصم في الأول من المحرم سنة ٢٢٧هـ فاعتلّ عندها، وتوفي يوم الخميس لسبع عشرة ليلةً من شهر ربيع الأول من السنة نفسها، فكان عمره سبعاً وأربعين سنةً، وشهرين وسبعة عشر يوماً.

وبويع لهارون الواثق بن محمد المعتصم يوم الأربعاء لثمانٍ خلون من شهر ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ، أي قبل وفاة أبيه بتسعة أيامٍ، وكان عمره يومذاك إحدى وثلاثين سنةً حيث وُلد لعشرٍ بقين من شعبان سنة ستٍ وتسعين ومائة، وأمه أم ولدٍ رومية تدعى «قراطيس». وكان مولده بطريق مكة.

الخاتمة

وأخيراً فهذا مجرى أهم الأحداث التي وقعت في عهد الخليفة محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد العباسيّ أو بالأحرى التي استطعت الوصول إليها وتدوينها، فأرجو من الله أن أكون قد وُفّقت في عرضها وحُسن تحليلها. فإن الوقائع في العصر العباسيّ خاصةً متداخلة إذ أكثر من موجّهٍ يُحرّكها، منهم الواقف المعلن الذي باسمه تتحرّك الشخصيات على الساحة، وباسمه تسير الجيوش للجهاد، وعليه تقوم حركات العصيان، والمخالفة، ورفض الطاعة، وقطع الخطبة، وذاك هو الخليفة الشرعي. ومنهم الذي يُبدي السمع والطاعة، ويُظهر الإخلاص والانقياد، ويُعلن السبق إلى ساحات الوغى ليُؤدّي ما عليه من واجباتٍ تجاه دينه، ولمصلحة أمته، وطاعةً لولي أمره والحقيقة أنه يريد البروز، ويبغي الرفعة ليتحرّك بعدها نحو ما يُخطّط له، وليُوجّه المركب نحو المرسى المطلوب.

ومن الناس من لا يرغب سوى إرضاء الله ورفعة الإسلام، وهداية البشر، والخير للناس جميعاً، هذا همه في الدنيا، ويسعى للفلاح في الآخرة، لهذا نذر نفسه ولهذا

يعمل، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾. وقد اختلط رجال الفريقين بعضهم مع بعضٍ تحت عنوانٍ واحدٍ وشعارٍ واحدٍ وهدفٍ واحدٍ، هذا ما يظهر والله وحده العليم بالسرائر، المطّلع على القلوب، الخبير بالنفوس.

ظهر الإسلام وانتصر، وامتد سلطانه وانتشر، وارتفع لواؤه وظهر، ودانت له الأمم المجاورة واعتنقته أبناؤها، وهذا ما أثار أصحاب العصبيات من أهالي تلك البلدان، عصبيةً للأرض، أم للشعب ودولته التي دالت، أم لعقيدته التي زالت غير أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً أمام عقيدة الإسلام التي تتفق مع فطرة البشر، ولا أمام قوة الإسلام التي لا تقهر ما دام الجهاد سلاحها، ولا أمام روح الإسلام التي يحلم بها الخلق لما تحمله من إخوةٍ، ومحبةٍ، وصدقٍ، وعدلٍ، وأمنٍ، ولم يجد الناس هذا إلا عندما جاء الإسلام ورأوا تطبيق أهله له.

لقد طغت العصبية الجاهلية، وغطت على العقول، وسيطرت على التفكير فماذا يفعل أصحابها وأيديهم مكبلة ضعفاً، وألسنتهم لا تستطيع النطق أمام

الحق الأبلج، لم يجدوا سوى طريقٍ واحدٍ، وهو أن يُعلنوا الإسلام، ويُبدوا الإيمان، ويُظهروا الصدق والإخلاص، ويندفعوا للقتال، ويتقدّموا للتضحية وهم في الحقيقة غير ذلك حيث يُبطنون الكفر ويُحافظون على ما كانوا عليه قبل الإسلام، ويُخفون أحقادهم، ويضمرون الشرّ، ويُخططون للعودة بشعبهم إلى سابق عهده، وبعقيدتهم إلى سالف أمرها.

أظهر الحاقدون المتعصّبون الإسلام، ودخلوا المجتمع، وصاروا من أبنائه، وجزءاً من الأمة، والصادقون من المسلمين سواء أكانوا من أرومة الشعب الذي ظهر منه المتعصّبون أم من غيرهم لم يلحظوا ما يجري بل لم يخطر على بالهم إذ لهم الظاهر والله هو الذي يتولّى السرائر. وهذا يعني أن المتعصبين هم قلّة من شعبهم، والبقية منه أسلموا بصدقٍ، وحملوا الإسلام بإخلاصٍ، وعملوا بأمانةٍ لا يختلفون عن غيرهم من أبناء الأمة المسلمة، فالمؤمنون إخوة، ولا فرق بين عربيٍّ وأعجميٍّ ولا بين أبيض وأسود إلا بالتقوى.

بدأ المكر في المجتمع والغطاء يحجب، والسرّ يكتم، والخبث يلعب، ولكن لا يمكن للأثر أن يظهر إلا بعد مدةٍ، وحتى يصل الحاقدون إلى الصدارة، ويرتقوا إلى

القيادة وهذا لا يكون إلا ليتقنوا العربية ويعرفوا الفقه فالقائد إماماً وخطيباً ومرجعاً وقدوةً، لذا حرص الحاقدون للوصول إلى ذلك بالعلم والفداء، وطلب بعضهم من بعضٍ الاهتمام بذلك، فلبّوا، وجدّوا، وحصّلوا.

لم يكن للحاقدين أثر في العهد الراشدي إذ لم تكن مخططاتهم قد تكاملت، ولا مكانتهم قد ظهرت، ولا لغتهم قد استقامت، ولكن مع ذلك لم يجدوا وسيلةً للفتنة إلا سلكوها، ولا طريقاً للإساءة إلا اتّبعوها، لذا كانوا مع اليهودي عبد الله بن سبأ صاحب أول فتنةٍ، ورجل أول مكرٍ، وأول كاذبٍ أظهر الإسلام وهو يريد الهدم من الداخل، وقد أخذوا عنه أفكاره في الفتنة والكفر وحملوها، ونقلوها لمن بعدهم، حتى بقيت راسخةً عند بعضهم.

وكذلك كان وضعهم ضعيفاً في العهد الأموي حيث لم تبرز بعدُ عناصرهم، ولم يصلوا إلى مراتب القيادة غير أنهم قد لعبوا دوراً في الفتن، إذ كانوا يُثيرون الطالبيين على الأمويين بادّعاء أنهم معهم. والواقع أنه لا فرق عندهم بين الفريقين، ولكن الهدف هو إحداث الفتنة وإضعاف المسلمين بالخلافات والصراع، فكان الحاقدون يدعون أحد الطالبيين للنهوض بالأمر ويعدونه

بالنصر، فإذا أثّروا عليه، وأجابهم، وسار إليهم، وكان اللقاء مع الخصم، والتقى القنا بالقنا تخلّوا عنه، وأسلموه، وكانت نتيجته إما القتل وإما الفرار والذلّ، ومعروف رفضهم لزيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب عندما قدم إليهم.

أما في العصر العباسي فقد أصبحت لهم مكانة وذلك لأنهم نظروا إلى الحركة العباسية فوجدوا أن الدعوة ناجحة والحركة قائمة، فأسرعوا وانضمّوا إليها وتصدّروا صفوفها، ونسوا من كانوا بالأمس يدعون إليهم ويعملون لهم وهم الطالبيون، وليس هذا تفضيلاً للعباسيين ومحبةً لهم، فالعرب المسلمون عندهم كلهم سواء، ولكن مصلحةً لهم، وتنفيذاً لمخططاتهم، وسعياً وراء أهدافهم، وبذا كانوا في صدارة الحركة العباسية وفي قيادتهم، وساعدهم على الصدارة تحسّن لغتهم في العربية، وإتقان دورهم بكتمان ما يُخفون، وإخفاء ما يُبطون، وإظهار العبادة الإسلامية.

ومع وصول الحاقدين إلى صفوف القيادات أخذوا يُؤدّون ما يستطيعون من دورهم، منهم من يُدوّن أخباراً يفتريها، ومنهم من يصوغ روايات ٍ وينقلها إلى المؤرّخين ويجعل لها سنداً زيادةً في كذبه وترويجاً لافتراءاته وطمأنينةً

على صدق الرواية لمن يأخذها وتأكيداً لصحتها، ومنهم من ينظم أبيات الشعر ويدسّها بين أبيات قصيدةٍ. ويُحلّل القادة الوقائع حسب أهدافهم وتُؤخذ عنهم وتسجّل، وهكذا دُسّ في كثيرٍ من كتبنا مثل هذه الدسائس والأمور غير الصحيحة حتى غدت كأنها حقيقة، وجاء الخلَف فنقلوا ما جاء في كتب من سبقهم وهكذا شاعت الأحداث البعيدة عن الواقع، وغُطّي العزّ والمجد، وحُجب العدل والحق، واختلط الصدق مع الكذب و....

إن واجب الباحث المنصف الذي يجري وراء الحق وإليه يسعى أن يفتش عن الحقيقة فيبحث بحثاً جاداً فيأخذ بعين الاعتبار توجّه الحكم ومنطلقاته الأساسية، وتوجّه الخلافة هنا هو الإسلام، ولا شك أن الخلفاء يتباين بعضهم عن بعضٍ فمن جاء في مرحلة صدر الإسلام ليس كمن جاء في مرحلةٍ متأخرةٍ، وتُعدّ مرحلة العباسيين متأخرةً، فقد ينعطف أحدهم يمنةً وينعطف أحدهم يسرةً لكن يبقى هذا وذاك ضمن خط الإسلام، وربما يخطئ ويزيد لكن لا يمكن أن يُجاهر بما أقدم عليه من منكرٍ، والكتب مليئة بهذه المجاهرات؛ الأمر الذي يدل على كثرة الافتراءات والدسائس المحشوة فيها، ولذا نُطالب الباحثين بالعمل الدقيق والتحليل الإيماني الصحيح، والعودة إلى

المنطلق المعروف الذي تنتهجه الأمة، والقياس على أساسه سواء أكان موافقاً أم مخالفاً.

وإن أمة يكثر فيها الذين يعملون على هدمها، وهم أصحاب مكانةٍ فيها وأثرٍ، ويحقدون على أفرادٍ منها، ويدّعون أنهم إخوان لهم، ويعملون على قتلهم قبل قتل من يزعمون أنهم لهم أعداء، إن أمةً مثل هذه لن يطول عمرها وسيسرع إليها الهلاك. وإن الأمة الإسلامية قد أُصيبت بهذا أيام الدولة العباسية، ولولا حفظ الله للإسلام ورعايته لهذه الأمة لانتهى خبرها منذ تلك الأيام فسبحان الله أحكم الحاكمين الذي جعل لكل أجلٍ كتاباً.

وإن أولئك الرجال الذين يُوجّه لهم النقد الدائم إنما هم أولئك الذين وقفوا مقابل أولئك الذين يُحاولون الهدم، وما هذا النقد إلا ما دوّنه الذين بيدهم المعاول، كما يجب أن ننظر إلى ما كان يُحيط بهم من هدّامين لا يعرفونهم بل ربما كانوا من سيوفهم، هذا بالإضافة إلى كثرتهم، ومع هذه المعاول ومع طول الزمن فقد ثبت هؤلاء مع ضعفٍ اعتراهم فيجب الإنصاف وتقدير المواقف فإنا لله وإنا إليه راجعون. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المحتوى

الموضوع	الصفحة